أحمد قاسم جودة



الناس والحياة في ألمانيا

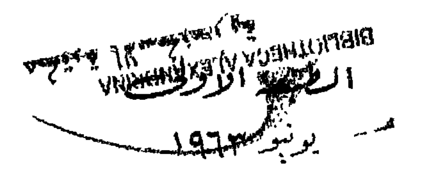
اهداءات ٢٠٠١
أ.د.يحيى دسوقى
القاهرة

الحياة والناس في ألمانيا

تأملات وانطباعات

بقلم

احمد قاسم جوده



المطبعة العالمية ١٦ و ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة



رجاء ودعاء ...

« لقد أشرفت على الثالثة والثمانين من عمرى .
وهأنذا أقف بين يدى الله متقدماً برجاء أخير لاحول
لى فيه — لسوء الحظ — ولا قوة ؛ وإنما هو صادر
من أعماق قلبي : إنه دعاء إلى الله أن يمنح البشر من
الحب ، ومن الطهر ، ومن الصفاء ، أكثر مما منحهم
حتى الآن — من أجل خلاصهم ! » .

جرهارت هاوبتمان

(١٨٦٢—١٩٤٦)



هذا الكتاب

ليس هذا أول كتاب لى فى أدب الرحلات والأسفار . فقد سبقه منذ بضع عشرة سنة كتاب آخر باسم « مارد من الشرق » نشر فى عام ١٩٥٠ ، وتضمن طائفة من الأحاديث والانطباعات عن رحلتين طويلتين قمت بهما إلى الهند ، إحداهما سنة ١٩٣٩ ، قبل الاستقلال ، والأخرى بعدها بعشر سنوات على وجه التحديد — سنة ١٩٤٩ — أى بعد الاستقلال .

وبين يدى الآن مخطوط عن رحلتى إلى الصين سنة ١٩٥٧ ، أرجو أن أنشره فى وقت قريب . وإن كان بعضه يحتاج إلى جهد كبير ليخرج من نطاق الرموز والعناوين التى سجلتها على عجل ، لأعود إليها بالشرح والتحليل عند ما يسمح الوقت المحدود الذى أعثر عليه بين واجبات العمل ، ومشاغل الحياة .

وقد تبينت على ضوء تجاربى السابقة فى الأسفار ، وهى تجارب ساقتنى حتى الآن إلى زيارة جميع القارات (عدا استراليا) ، فطوفت عبر آسيا من المشرق العربى إلى أقاصى الصين ، وعبر أفريقيا من شمالها إلى أواسطها وشرقها فى أريتريا والصومال . وعبر أوربا من موسكو إلى براغ وبودابست وباريس وبرلين ولندن . وعبر أمريكا الشمالية مطوفاً بأرجاء الولايات المتحدة بين المحيطين . وعلمتنى تجارب هذه الأسفار كلها بأن من الخطأ ترك الزمن يعفى على دروسها وانطباعاتها ، حتى (تبهت) الصور ، وتمحى جدة الأحاديث والذكريات .

لهذا حرصت على تدوين كثير من مشاهداتى وملاحظاتى طوال الأشهر الثلاثة التى طوفت فيها بأنحاء ألمانيا ، متكلماً ومستمعاً ، متفرجاً ودارساً ، مشتغلاً ومستجماً حتى تجمع لى من هذه المادة ما يشبه مائدة صغيرة من مختلف ألوان الشراب والطعام . ولعل بعض القراء قد تذوق بعض هذه الألوان على صفحات (المصور) أو (الهلال) أو على أمواج الأثير . ولكنى لا أحسب ذلك إلا دافعاً إلى مزيد من الإغراء الذى جعلنى أسارع إلى تقديم هذا الكتاب إلى جمهرة قراء اللغة العربية ، والمساهمة بنصيب متواضع فى أدب قديم محبب إلى النفوس فى جميع اللغات ، وهو أدب الرحلات . ومن حسن الحظ أن هذا الأدب قد حظى فى الأدب الحديث أيضاً بقدر وافر من عناية المشتغلين بالأدب والصحافة على السواء . وآخر ما قرأت من هذا القبيل ذلك الكتاب الممتع الذى أصدره زميلى وصديقى الأديب الساخر الأصيل الأستاذ أنيس منصور ، وجعل عنوانه « ٢٠٠ يوم حول العالم » .

وإذا لم يكن فى أمثال هذه المؤلفات من فائدة سوى إغراء القراء بالاستزادة من المعرفة بأحوال الناس والحياة فى عالم كادت تمحى فيه المسافات بين بلد وبلد ، وبين شعب وشعب . لكان جديراً بكل جهد يبذل فى إخراجه ، كمجرد مساهمة جد متواضعة فى هذا الميدان .

* * *

وقد بدأت أفكر فى زيارة ألمانيا إثر كلمة عتاب سمعتها تتكرر مرة بعد أخرى على ألسنة بعض الأصدقاء الألمان الذين التقيت بهم فى القاهرة ، وقد عبروا فى رقة بالغة عن أسف مشوب بالدهشة ، لأننى فى كل رحلاتى إلى أوربا والولايات المتحدة الأمريكية ماراً بأوربا لم أنتهز فرصة واحدة لإلقاء نظرة على بلدهم الكبير ،

والاطلاع — كصحفى مسئول — على تطوره السريع المذهل من الفقر المدقع والدمار المروع فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، إلى الرخاء والبناء والتعمير والتقدم بسرعة الصواريخ فى ميادين الصناعة والاقتصاد والإصلاح الاجتماعى .

وتصادف أن جاء هذا العتاب فى اللحظة التى كنت عاكفاً فيها على التفكير فى إجازة طويلة أستريح خلالها من أثقال العمل التى ناء بها كاهلى بعد أن تجاهلت حقى فى الراحة أكثر من ثلاث سنوات متواصلة . فرأيتها فرصة فى أوانها لزيارة ألمانيا لعلنى أحظى بقسط من الراحة ، وأستكمل فى الوقت نفسه جزءاً من الكثير الذى لا يزال ينقصنى فى دراسة الشئون العالمية — على الطبيعة . وقد استقر فى نفسى بعد تجاربى المتعددة فى السفر ، أن قراءة الكتب والصحف ، والاستماع إلى الإذاعات والمحاضرات شىء ، ودراسة الموضوعات والمشاكل فى مكانها ، وبين أصحابها شىء آخر . ولهذا عقدت العزم على أن تكون زيارتى الأولى إلى ألمانيا خلال أشهر الصيف الماضية ، أى صيف سنة ١٩٦٢ .

وجاء الصيف ، ومع كل شهر منه عذر يضطرنى إلى التسويف على مضض ، لأن ظروف العمل كانت تفرض على الانتظار ، ولا سيما أن كلا الزميلين الكبيرين فى دار الهلال ، الأستاذين فكرى أباظه وعلى أمين ، اضطر إلى السفر قبلى للعلاج . ولم يكن فى استطاعتى أن أترك مكانى أيضاً فى رياسة تحرير (المصور) قبل عودتهما من الخارج .

وهكذا قدر لى ألا أسافر إلى ألمانيا حين يؤثر السائحون زيارتها ، فى فصلى الربيع والصيف ، ولكن حاجتى إلى الراحة والاستجمام ، كانت مقترنة برغبة لا تقف عند حد فى الدرس والاستقصاء . ولهذا قررت أن أمضى فى ترتيبات الزيارة ، ولو فى زمهرير الشتاء !

وكان شتاء تحدثت به الركبان ! والركبان فى عصرنا الحاضر لم يعودوا راكبى الجمال وسائر الدواب ، بل هم مراسلو الصحف ووكالات الأنباء الذين ينتشرون فى كل مكان على وجه الأرض ليركبوا بأفكارهم وأخبارهم متن الأثير ! وهم فى أماكنهم باقون ، لا ينتقلون منها ولا يتحولون عنها ، ولا يتجولون كما كان يفعل الأولون ! وقد تحدث ركبان الأثير هؤلاء عن هذا الشتاء بالذات ، وأفاضوا فى استقصاء الأخبار الوثيقة عن قسوته التى لم يشهد لها العالم مثيلاً خلال عشرين أو ثلاثين سنة قبل الآن .

ولم أحزن . ولم أندم .

لقد شهدت أوربا كما لم يتح لى أن أشاهدها من قبل . كنت فى كل مرة أرى صيفها وربيعها . فرأيتها فى هـذه المرة ترتدى أجمل غلالة بيضاء من نسج الطبيعة الساحرة فى الشتاء !

والبرد ؟

أحسست به أيضاً كما لم أحس به ولم أتصوره قبل اليوم . ولـكنها كانت تجربة جديدة مثيرة لإنسان جاء من أفريقيا وحرها اللافح ، ليجد نفسه فجأة متجولاً فى طقس تهبط فيه درجة الحرارة إلى ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر !

ومع ذلك لم أصب مرة واحدة بالزكام ، مجرد الزكام الذى ألتقطه عادة كما يلتقط المغناطيس إبر الحديد ، كلما جلست دقيقة أو دقيقتين فى معبر للهواء ! فالبرد شديد حقاً ، وقارس حقاً . ولـكنه هنالك برد جاف ، صحى ، يبعث على الحركة والنشاط .

ثم كان هنالك شىء آخر .

كانت هناك حرارة الصداقة القديمة والحديثة التى جمعت بين شعبى مصر وألمانيا على مدى التاريخ . وما من مصرى يستطيع أن يعيش يوماً فى ألمانيا دون أن يستشعر قوة هـذه الصداقة ودفئها فى علاقاته بالمئات والألوف من أبناء الشعب الألمانى على اختلاف طبقاته ، حتى بين القلة التى ضللتها الدعايات الصهيونية الخبيثة ، على النحو الذى لا يحتاج هنا إلى بيان .

وإنه ليسرنى ويشرفنى أن يكون هذا الكتاب ثمرة متواضعة من ثمار هذه الصداقة الوثيقة العريقة .

أحمد قاسم جوده



مقدمة لا بد منها

لكى نفهم ألمانيا الاتحادية

إن الذى يزور ألمانيا الاتحادية ، أو « الجمهورية الاتحادية لألمانيا وبرلين الغربية » — وهو اسمها الرسمى — سيجد من العسير عليه أن يتفهم الناس والحياة فيها ، ويدرك طبيعتها ومشاكلها ، ويفهم الاصطلاحات الشائعة على ألسنة الملايين الأربعة والخمسين الذين يؤلفون مجموع سكانها (طبقاً لتعداد سنة ١٩٦١) ما لم يكن ملماً بطرف من تاريخها وظروفها وتطور النظم والأشكال السياسية فيها ، قبل الحربين العالميتين الأخيرتين وبعدهما .

ولكيلا أتحول عن الهدف الأساسى من وضع هذا الكتاب ، وهو تسجيل المشاهدات ، والانطباعات التى رسخت فى نفسى خلال رحلتى إلى ألمانيا ، وتجولى بين أرجائها ، وأحاديثى مع أناس من مختلف الطبقات فى ربوعها ، فقد رأيت أن أقدم لهذه الانطباعات بكلمة سريعة ، وإلمامة خاطفة بهذه الجوانب ، مستنداً إلى آخر ما بين يدى من بيانات ، ترسم صورة عامة لذلك البلد الصديق العريق.

ولنبدأ من البداية ، كما يقولون .

لنبدأ بسطور قليلة جداً تلخص تاريخ الشعب الألمانى منذ نشأته حتى اليوم :

إنه واحد من الشعوب التى اصطلح على تسميتها « بالشعوب الجرمانية ». مثله

فى ذلك مثل شعوب أخرى فى شمال أوربا ، كشعب السويد وشعب الدنمرك . وقد كان الشعب الألمانى فى أول الأمر عبارة عن مجموعة من القبائل القديمة ، فكان منه السكسونى والفريزيون فى الشمال ، وقبائل الفرنج أو الفرنك فى الغرب وقبائل التورنج فى الوسط ، وقبائل السواب والبافار فى الجنوب . وكان لكل من هذه القبائل بطبيعة الحال طبائعها ، وعاداتها ، وتقاليدها ، التى تعتز بها ، وترفض أن تتخلى عنها . وما زال أثر التنوع والتعدد فى هذه العادات والطبائع والتقاليد بارزاً ملموساً حتى اليوم فى الدولة الاتحادية التى تضم سلالات هذه القبائل القديمة ، ولعل أهم مظهر لأثر هذا التعدد القبلى هو النظام الفدرالى الذى هو دعامة الحكم فى ألمانيا الاتحادية من أيام بسمارك حتى الآن .

وقد عرف العالم « الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة » لأول مرة سنة ٨٠٠ ميلادية يوم تولى البابا ليو الثالث تتويج شارلمان ملك الفرنسيين إمبراطوراً عليها . وبلغت هذه الإمبراطورية أوج مجدها بعد أربعة قرون تحت حكم آل هوهنشتاوفن . ثم أخذت فى الاضمحلال والانحلال مع تعاظم سطوة الأمراء الإقطاعيين . ولكنها عادت أعظم مما كانت عندما آل حكمها مع حكم أسبانيا إلى آل هابسبورج وأصبحت تؤلف مع النمسا وأسبانيا إمبراطورية من أكبر الإمبراطوريات وأقواها فى التاريخ .

وبدأت مع النصف الأول من القرن السادس حركة (الإصلاح الدينى) حين ظهر مارتن لوثر (١٤٨٣ —١٥٤٦) . وظهرت بظهوره أول ترجمة للتوراة والإنجيل باللغة الألمانية التى يرجع إليه الفضل فى وضع قواعدها ونحوها . ولكن القرن السابع عشر كان يخبىء لألمانيا أهوالا شداداً ، فاندلعت الحرب فى ربوعها ثلاثين عاماً (١٦١٨ -١٦٤٨) وأحدثت من الدمار والخراب ما لم تشهده

ألمانيا من قبل ، دون أن تحقق الغرض من قيامها وهو الوحدة الدينية . وجاء القرن الثامن عشر فتألق خلاله نجم الدولة البروسية . ولكن « الإمبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة » تلقت الضربة القاضية على يد نابليون فى أوائل القرن التاسع عشر . وقام على أنقاضها اتحاد مفكك العرى دام خمساً وستين سنة ، حتى جاء عام ١٨٧١ ، فارتفع لأول مرة علم « الرايخ الألمانى » ، وأجمع الألمان على تتويج ملك بروسيا امبراطوراً على دولتهم الجديدة ، وأصبح الأمير أوتو فون بسمارك ، عبقرى السياسة الألمانية ، أول «مستشار» للرايخ الجديد . و « المستشار » هو التعبير السياسى فى ألمانيا لمنصب رئيس الحكومة .

ومما يلفت النظر أن قيام الرايخ الألمانى الجديد لم يكن فقط إيذاناً بنهوض ألمانيا السياسى ، بل كان فى الوقت نفسه فاتحة عهد زاهر فى عالم الاقتصاد الألمانى والفلسفة الألمانية والأدب والموسيقى وسائر الفنون والعلوم . وحسبنا أن نذكر فى هذا المقام أنه فى هذه الفترة ظهر الفيلسوف العظيم إيمانويل كانت ، كما ظهر فى الشعر أعظم شعراء ألمانيا على الإطلاق ، وفى طليعتهم جوته وشيلر وليسنج .

وجاء القرن العشرون ، لتواجه ألمانيا فى نصفه الأول أفظع حربين عرفتهما البشرية ، هما حرب سنة ١٩١٤ ، وحرب سنة ١٩٣٩ .

ولم يكن فى استطاعة أعظم الناس تفاؤلا أن يتنبأ بأن ألمانيا التى سحقتها الهزيمة فاستسلمت بلا قيد ولا شرط لقوات الحلفاء الغربيين والسوفييت ، ستنهض مرة أخرى على قدميها ، وتصعد من السفح إلى القمة — أجل القمة السامقة فى الرخاء الإقتصادى — وتستعيد مكانتها بين الدول الكبرى ، رغم أن معاهدة الصلح لم توقع معها حتى اليوم !!

* * *

عند هذا الحد من العرض التاريخي الخاطف يجب أن أسارع فأقول إن ألمانيا التي أتحدث هنا ، ليست هي الرايخ الألماني القديم ، بل هي جزء منه ، وهو الذي تقوم فيه الآن «الجمهورية الاتحادية لألمانيا الغربية وبرلين» . ذلك أن المنتصرين فرضوا على الرايخ الألماني (بحدوده التي كانت معروفة سنة ١٩٣٧) ، تقسيما لأراضيه إلى أربع مناطق للاحتلال على الوجه التالي :

١ — منطقة بريطانية .

٢ — منطقة أمريكية .

٣ — منطقة فرنسية .

وهذه كلها تقع في الغرب .

٤ — منطقة سوفيتية تقع في الوسط والشرق .

وكذلك قسمت برلين أربعة قطاعات ، ثلاثة لحلفاء الغرب ، والرابع للسوفييت .

وفي الوقت نفسه نزعت الولايات الشرقية من الرايخ الألماني وأجلي عنها معظم سكانها ، ووضعت تحت الإدارة البولندية كما وضع جزء منها تحت الإدارة السوفيتية وذلك إلى أن تبرم معاهدة الصلح .

وفي سنة ١٩٤٨ أعيد تقسيم برلين ، فأدمجت القطاعات الثلاثة : الفرنسية والبريطانية والأمريكية في قطاع واحد أصبح يسمى « برلين الغربية » ، وأصبح القطاع الباقي ، وهو السوفييتي قائماً بذاته باسم « برلين الشرقية » وبعد عام واحد أي في سنة ١٩٤٩ أعلن ممثلو الولايات الألمانية في مناطق الاحتلال الغربية الثلاث تأسيس « جمهورية ألمانيا الاتحادية » . ولكن هذه الجمهورية لم تصبح دولة ذات

سيادة إلا فى سنة ١٩٥٥ . وهى تشمل الولايات الإحدى عشرة التالية :

اسم الولاية	عدد السكان
١ — شليزفيج هولشتاين	٢ر٢٧٥ر٨٠٠
٢ — هامبورج	١ر٨٠٧ر٦٠٠
٣ — سكسونيا السفلى	٦ر٥١٥ر٦٠٠
٤ — بريمن	٦٧٧ر٥٠٠
٥ — نوردراين ـ فستفاليا	١٥ر٤٥٨ر٦٠٠
٦ — هيسن	٤ر٦٥١ر٥٠٠
٧ — راينلاند ـ بالاتينات	٣ر٣٥٤ر٧٠٠
٨ — بادن فرتمبورج	٧ر٤٣٣ر٠٠٠
٩ — بافاريا	٩ر٢٧٨ر٠٠٠
١٠ — السار	١ر٠٤٠ر٠٠٠
١١ — برلين الغربية	٢ر٢٢٦ر٠٠٠
المجموع طبقاً لتعداد ديسمبر سنة ١٩٥٨	٥٤ر٧١٨ر٣٠٠

وإذا كنا قد أضفنا برلين الغربية إلى هذا الإحصاء ، فيجب أن نشير فى الوقت ذاته إلى أنها تنفرد بمركز خاص لا تشاركها فيه الولايات العشر الأخرى ، إذ أن برلين الغربية ليست فى الواقع خاضعة لسلطة الحكومة الاتحادية الألمانية بالمعنى المفهوم فيما يتعلق بسائر الولايات ، ولا يزال تطبيق الدستور الاتحادى الألمانى فيها خاضعاً لعدد من القيود ، وفقاً للاتفاقات الرباعية التى أبرمت فى عامى ١٩٤٤ و ١٩٤٥ .

إن ألمانيا ، كما يراها الألمان الغربيون ليست مجرد بلد مشطور قسمين ، كما هو الاعتقاد السائد فى العالم الخارجى ، بل هى بلد مقسم ثلاثة أقسام منذ سنة ١٩٤٥ وهذه الأقسام هى :

(١) الجمهورية الاتحادية لألمانيا الغربية وبرلين (أى القسم الغربى منها) .

(٢) جمهورية ألمانيا (الديمقراطية) أى الشيوعية القائمة فيما يسمى (ألمانيا الشرقية) ، وهى تسمية يعترض عليها الألمان الغربيون كما أوضحت فى مكان آخر .

(٣) الولايات الشرقية ، للرايخ الألمانى ، ويعنون بها الولايات التى وضعت (مؤقتاً) تحت الإدارة البولندية والروسية المباشرة . ويقولون إن الألمان قد استقروا فى تلك الولايات منذ القرون الوسطى ، وخلقوا فيها نهضة اقتصادية وثقافية عظمى . وقد أصبح الألمان فيها الآن قلة قليلة بعد أن طرد منها نحو ٩ ملايين من الألمان بين سنة ١٩٤٤ و سنة ١٩٤٦ .

ويبلغ عدد سكان ألمانيا الشيوعية نحو ثلث سكان ألمانيا الغربية وبرلين ، فبينما يبلغ عدد الألمان الغربيين (بما فيهم سكان برلين الغربية) — طبقاً لتعداد أواخر سنة ١٩٥٨ — ٥٤٫٧٠٠٫٠٠٠ نسمة ، نرى التعداد نفسه يبين أن سكان ألمانيا الديمقراطية أو الشيوعية ، يبلغ عددهم ١٧٫٣٠٠٫٠٠٠ نسمة .

وترى الجمهورية الاتحادية ، أنها هى وحدها التى تملك أن تتفاوض باسم ألمانيا كلها باعتبارها الحكومة الوحيدة التى جاءت وليدة انتخابات حرة ، واستكملت فى نظر القانون الدولى مقومات « الدولة ذات السيادة » .

أما الهدف القومى المنشود فى ألمانيا الغربية ، فقد لخصوه فى هذه العبارة :

« توحيد ألمانيا بجميع أجزائها ، فى ظل الحرية ، ومن طريق الوسائل السلمية » .

وهو هدف قد يبدو بسيطاً — على الورق — ولكن الاطلاع على حقائق الموقف منذ وضعت الحرب أوزارها حتى الآن كفيل بإقناع المرء بأن دون تحقيق هذا الهدف الأسمى للالمان الغربيين أهوالا بعد أهوال ، ولكنهم ، رغم وضوح هذه الأهوال ، يرفضون الاستسلام لليأس من تحقيقه بحال من الأحوال .

* * *

والحكم فى ألمانيا الغربية حكم جمهورى ديمقراطى تكاد حرية الفرد فيه أن تطغى فى قداستها على سلطة الدولة .

و « رئيس الاتحاد » هو رئيس الدولة . وينتخب لمدة خمس سنوات . وقد انتخب الرئيس الحالى الدكتور هينريخ لوبكه فى يوليه سنة ١٩٥٩ .

أما رئيس الحكومة أو رئيس الوزراء ، فيسمونه « المستشار » . وهو يتمتع طبقاً للدستور الألمانى ، بسلطة تكاد تكون مطلقة ، ولا سيما إذا اقترنت هذه السلطة بشخصية قوية ، مهيبة ، كشخصية الدكتور كونراد أديناور المستشار الحالى الذى وافق على اعتزال الحكم فى شهر أكتوبر المقبل ، لكى يخلفه نائبه الآن البروفيسور لودفيج إيرهارد وزير الاقتصاد وصانع المعجزة الاقتصادية الألمانية كما يسمونه .

ومن النصوص الفريدة فى الدستور الألمانى أن مجلس النواب (ويسمونه هناك البوندستاج) يستطيع أن يسحب الثقة من (المستشار) ، ولكن المستشار لا يستقيل ولا يقال لمجرد سحب الثقة منه ، بل يجب على مجلس النواب أيضاً

أن يتفق مقدماً على اختيار خلف المستشار بالأغلبية البرلمانية . ويسمون هـذا الشرط ، « شرط الفيتو الإنشائى » أى الإيجـابى ، البناء ، فلا تكون مهمة المجلس النيابى عزل رئيس الوزراء وكفى . . . بل يجب أن يتحمل قبل العزل مسئولية اختيار الخلف الذى يراه أصلح منه .

و (البوندستاج) ، أى مجلس النواب الاتحادى ، هو أعلى سلطة تشريعية فى البلاد ، وينتخب عن طريق الاقتراع السرى المباشر كل أربع سنوات . ويبلغ عدد أعضائه ٥٢١ نائباً ، من بينهم ٢٢ نائباً عن برلين الغربية . لهم حق الحضور والاشتراك فى المناقشات ولـكنهم لا يملـكون حق التصويت ، أى أن أصواتهم تعد استشارية محضة .

والبرلمان الألمانى يتألف من مجلس (البوندستاج) هذا ، ومن مجلس ثان يسمى (البوندسترات) ، أى المجلس الاتحادى . وعدد أعضائه ٤١ عضواً تعينهم حكومات الولايات العشر وهم يسمون الولاية هناك (لاند) وجمعها (ليندر) ، يضاف إليهم أربعة مستشارين تعينهم الولاية الحادية عشرة وهى برلين الغربية ، ولـكنهم هنا أيضاً لا يملـكون حق التصويت إلا بصفة استشارية محض . ويتناوب رياسة هذا المجلس عاماً بعد عام رؤساء حكومات الولايات . وليست موافقة هذا المجلس محتمة فى جميع القوانين ، ولـكن هناك مشروعات بقوانين يقرها (البوندستاج) ولا يمكن تطبيقها واعتبارها سارية المفعول ما لم يقرها البوندسرات أيضاً .

وتتألف الحـكومة الألمانية الاتحادية من ١٧ وزيراً مهمتهم السهر على تطبيق القوانين فى أنحاء الولايات ، بواسطة حكوماتها الإقليمية ، والاشتراك فى التشريع العام . ومزاولة اختصاصاتهم التى نص عليها الدستور وهى تتعلق بالشئون السياسية

والدفاعية والاقتصادية والتشريعية العليا ، كالخارجية والدفاع والنقد ونحوها . أما الشئون الإدارية والتنفيذية وفى مقدمتها شئون التعليم والأمن الداخلى والمعونة الاجتماعية والصحة والقضاء وإنشاء الطرق . فهى من اختصاص التقسيمات الإدارية — أى المدن والقرى — تحت رقابة حكومة الولاية وحدها ، لا رقابة الحكومة المركزية التى تتخذ بون مقراً لها ، بوصفها عاصمة مؤقتة .

وهنا أحب أن أضغط على ناحية ليست واضحة تماماً فى أذهان الذين يراقبون النظم الألمانية عن بعد ، وهى أن ألمانيا « دولة اتحادية » بأوسع معانى هذه الكلمة أى أنها اتحاد مجموعة من الولايات ، وأكاد أقول مجموعة من الدويلات داخل الدولة ، فلكل ولاية من الولايات الإحدى عشرة حكومة كاملة التكوين والمسئولية داخل حدود الولاية ، ولكل ولاية برلمان من مجلسين كأى برلمان فى أى حكومة مستقلة . بل أن هذا البرلمان يستقل فى بعض الحالات بتشريعات لا يملك البرلمان الاتحادى ولا الحكومة المركزية الاتحادية حتى حق المشاركة فيها ، كالتشريعات الخاصة بالتعليم والثقافة بوجه عام . وقد يدهش بعض الناس إذا علموا — مثلا — أن الوزارة الاتحادية ، المركزية ، لا تضم وزيراً للتعليم ، ولا وزيراً للثقافة ، بينما يوجد أحد عشر وزيراً للتعليم ومثلهم للثقافة فى الولايات الإحدى عشرة !

وهذا الاستقلال الإقليمى ، أو المحلى ، فى ولاية ألمانيا الاتحادية هو الذى يفسر ما يلاحظه الزائر من متناقضات أو معميات خلال جولاته فى أنحاء البلاد .

ومن هذا القبيل ما يحسبه البعض من أن الحكم فى ألمانيا الغربية فى يد الحزب الديمقراطى المسيحى مؤتلفا مع حزب الأحرار الديمقراطى ، بينما تتمثل المعارضة فى الحزب الاشتراكى الديمقراطى . وهذا صحيح إذا كان المقصود

هو الحكم المركزى الممثل فى وزارة الدكتور أديناور القائمة عند كتابة هـــذه السطور .

ولـكن هذا الفهم يصبح خاطئاً مائة فى المائة إذا كان المقصود أن الحكم فى كل الولايات الألمانية فى أيدى الديمقراطيين المسيحيين والديمقراطيين الأحرار فالواقع غير ذلك تماماً . إذ أن الحكم فى ولاية ما (لاند) قد يكون للديمقراطيين المسيحيين ، وفى ولاية مجاورة لها للاشتراكيين الديمقراطيين الذين يمثلون المعارضة للدكتو إديناور وحزبه الديمقراطى المسيحى فى البرلمان الاتحادى ، ولا يشتركون بالطبع فى الوزارة المركزية .

والأحزاب الألمانية القائمة الآن هى الآتية ، مع بيان عدد كل منها فى البوندستاج (مجلس النواب الاتحادى) :

١ — الحزب الديمقراطى المسيحى وقد كان عدد نوابه فى انتخابات سنة ١٩٤٩ : ١٤١ ، فأصبحوا ٢٥١ فى انتخابات سنة ١٩٦١ .

٢ — الحزب الاشتراكى الديمقراطى ، وكان عـــــدد نوابه سنة ١٩٤٩ ١٣٠ فأصبحوا سنة ١٩٦١ : ٢٠٣ .

٣ — الحزب الديمقراطى الحر وكان عدد نوابه سنة ١٩٤٩ : ٥٣ فأصبحوا الآن ٦٧ .

٤ — الحزب الألمانى ، وكان عدد نوابه سنة ١٩٤٩ : ١٧ فأصبحوا صفراً سنة ١٩٦١ .

ولا يوجد حزب شيوعى لأن القانون هناك يحظر قيام هذا الحزب .

هذه معلومات وجيزة ، مركزة ، رأيت أن أسجلها هنا كمقدمة لابد منها قبل متابعة الفصول التي يضمها هذا الكتاب . فلعلها تساعد القارئ على الطواف معي في جولة استغرقت زهاء ثلاثة أشهر للمرة الأولى في بلد من أجمل بلاد العالم ، وأرقاها ، وأوفرها رخاء ، وأكثرها كفاحاً للنهوض من كبوة بعد كبوة كانت إحداهما تكفي لسحق شعوب كثيرة لا تملك من صفات الجد ، والكد ، وحب العمل والنظام ، ما يملك هذا الشعب العظيم .



بلاد العمل والحرية

لم يَصدُق أحد قط كما صدق الشاعر العربي الذى قال : «وما راءٍ كمن سمعا» ... وقد يصدق أيضاً المثل المشهور : « تسمع بالمعيدى خير من أن تراه » ... ولكن هذا المثل الأخير لا يصدق بحال من الأحوال على ألمانيا التى سمعت عنها ، وقرأت عنها ، ثم رأيتها للمرة الأولى خلال الأشهر الثلاثة التى قضيتها فيها بين آخر نوفمبر الماضى ومنتصف مارس من العام الحالى فوجدت الحديث عنها يحتاج إلى مجلدات ومجلدات ، وإلى صور لا تعد ولا تحصى تنقل إلى المرء فكرة صادقة عنها . فالواقع أن ألمانيا التى رأيتها ، وطفت بها شرقاً وغرباً ، وشمالا وجنوباً ، أجمل ألف مرة ، وأروع ألف مرة ، من كل ما قرأت ، وما سمعت ، وما تخيلت .

ولعل أول ما راعنى بعد أيام معدودة من إقامتى فى تلك البلاد متنقلا بين فرنكفورت ، وبون ، وباد جودسبرج ، وهامبورج ، ولوبيك ، وكولن ، أو كولونيا ، كما يسميها غير الألمان . هو ذلك الجو الغامر من الحركة والنشاط ، والبناء والتعمير ، والعمل والمرح ، والاستعداد فى البيوت والشوارع والمتاجر لاحتفالات عيد الميلاد ورأس السنة الجديدة ، وعلى نطاق يجعل من الصعب على الإنسان أن يصدق أن أولئك الذين راحوا يملأون جو البلاد بمظاهر تلك الحيوية الدافقة ، قد خرجوا هم وآباؤهم وأبناؤهم من حربين طاحنتين فى خلال ثلاثين سنة بدأت أولاهما سنة ١٩١٤ ، وانتهت الثانية سنة ١٩٤٤ بعد أن خلفت من الدمار والشقاء والبؤس ما لم تخلفه أية حرب أخرى سجلها التاريخ . . . إن الشعب الذى حلت به الهزيمة فى هاتين الحربين المدمرتين ، كان خليقاً

أن تدب فيه روح اليأس ، وتسيطر عليه كآبة النفس ، ويقضى السنين الطوال نادباً حظه ، أو قانعاً بمحاولة الوقوف — مجرد الوقوف — على قدميه . ولكن ما هكذا الشعب الألمانى الذى رأيته ، وتحدثت إلى أفراده رسميين وغير رسميين ، شيوخاً مجربين وشباناً يافعين لا تخلو حياتهم من مشاكل أصبحت فى معظمها عالمية لا محلية .

المهم أنهم جميعاً يبنون ، ويعمرون ، ويعملون ، ويمرحون ، ويشعرون — ولهم الحق كل الحق — بأن بلدهم خسر الحرب وكسب السلام ، وأنهم بالعمل ، والعمل ، ومزيد من العمل . . . قد استطاعوا أن يقفوا فى دنيا الرخاء حيث هم الآن : فوق القمة . القمة التى يحسدهم عليها حتى الذين دقوا طبول النصر ، ثم أخفقوا بعد مضى أكثر من سبعة عشر عاماً على وقف القتال ، فى الاتفاق على معاهدة للصلح ، بل إنهم أخفقوا حتى فى طى صفحات الحقد والمرارة ، وما زلوا ينبشون الماضى بحثاً عن ضحايا جدد من بين قواد ألمانيا وزعمائها القدامى ، يقدمونهم لمحاكمات عسكرية وسياسية لا يقتنع أحد بأحكامها ، ولا بجدواها ، إلا أن يكون الغرض منها هو تذكير الشعب الألمانى بما يود أن ينساه ، وإحداث جراح عميقة — وإن تكن صامتة — فى قلب هذا الشعب للذى دفع الضريبة كاملة عن أخطاء الحكم الدكتاتورى الذى ساقه إلى الحرب ، وما جرته الحرب من دمار .

والظاهرة الثانية التى استرعت انتباهى ، عند ما ذهبت إلى تلك البلاد العريقة فى أواخر شهر نوفمبر الماضى ، هى حساسية الشعب الألمانى إزاء كل تصرف يشتم فيه نزعة دكتاتورية ، أو جنوحاً إلى طريق غير طريق الحرية ، بأوسع معانى هذه الكلمة الغالية . فقد شاءت المصادفات أن تكون أزمة مجلة (شبيجل) أى (المرآة) ، على أشدها عند وصولى ، وهى الأزمة التى أدت إلى استقالة وزير

الدفاع السابق ، هر شتراوس ، الذى يعد من أقدر الشخصيات السياسية البارزة ، ومن أقربها إلى قلب المستشار أديناور . وليس هـذا مجال الدخول فى تفاصيل الأزمة ، وملابساتها ، ولا هو مجال الانحياز إلى جانب وزير الدفاع السابق الذى قيل إنه اتصل بالنائب العام — دون علم وزير العدل — طالباً القبض على صاحب المجلة ورئيس تحريرها وبعض محرريها والتحقيق معهم بتهمة إفشاء أسرار حربية للدولة .

ليس هذا مجال البحث فى هذه التفاصيل والانحياز إلى جانب الوزير الذى استقال ، أو إلى جانب المجلة التى اعتقل رجالها ، ولـكن الذى لفت نظرى وأثار إعجابى حقاً هو الاهتمام الهائل الذى تابع به الرأى العام الألمانى أدوار الأزمة منذ لحظاتها الأولى ، ووقوفه وقفة قوية مشرفة مصراً على ضرورة احترام الحدود المرسومة بين السلطات ، وضمان حرية الصحافة ضماناً كاملا فى حدود القانون بطبيعة الحال ، فلا يتدخل للحد من هذه الحرية كبير أو صغير . وفى هذا المقام سمعت تعليقاً لاذعاً من أحد الألمان الذين يقدرون وزير الدفاع السابق ويعجبون بمواهبه كخطيب مفوه ، وسياسى ضليع ، ولـكنهم يقدسون مبادىء الحرية ، ولا سيما حرية الصحافة . قال هذا الألمانى :

— ترى ماذا يحدث لحرية الصحافة عندنا ، إذا رأى كل وزير أن يتخذ إجراءات مباشرة للقبض على كل صحفى يعتقد الوزير ، خطأ أو صواباً ، أنه أساء للصالح العام ؟ !

وهذه الحساسية المرهفة إزاء أى تصرف ينال من الحريات أو يتهددها من قريب أو بعيد ، لا تقتصر على الميدان السياسى وحده ، بل هى أساس متين ، صلب ، يقوم عليــه الرخاء الاقتصادى الذى يلمسه كل من يزور ألمانيا الغربية

وبرلين الغربية . فالحرية التامة هى كلمة السر وراء السياسة الاقتصادية التى أصرت الحكومة الاتحادية على انتهاجها رغم جميع المخاوف ، ورغم جميع المعارك التى خاضها البروفسور إيرهارت نائب مستشار ألمانيا الغربية ورئيس مجلس وزرائها الاقتصادى حتى أثبتت الإحصائيات والتجربة الفعلية أن الحرية فى دنيا المال والاقتصاد دعامة كبرى فى بناء الدولة كالحرية فى عالم السياسة سواء بسواء . وفى ذلك يقول البروفسور إيرهارت فى كتابه المشهور « المنافسة طريق الرخاء » :

« إننا إذ انتقلنا من اقتصاد محكوم موجه إلى اقتصاد حر قائم على احتياجات السوق ، قمنا بما هو أكثر من مجرد إجراء اقتصادى . لأننا نضع بذلك قواعد جديدة لحياتنا الاجتماعية والاقتصادية . لقد كان حتماً علينا أن نهجر التعصب الفكرى الذى هو مؤد فى النهاية إلى الطغيان الدكتاتورى . إننا نهدف إلى نظام قائم على الحرية وعلى إحساس عميق بالمسئولية حتى نصل إلى مجتمع عاقل معقول » .

وفى مكان آخر من الكتاب نفسه يقول البروفسور إيرهارت إن ما تم فى ألمانيا مما أصبح يسمى « بالمعجزة الألمانية » ، إنما جاء « نتيجة المجهودات النزيهة المخلصة لشعب بأكمله حرص على الحرية ، وصان مبادئها ، وأعطى الفرصة لكى يبذل جهده ويحقق ذاته . وإذا كان للمثل الذى ضربته ألمانيا من قيمة فهى أنه أثبت للعالم كله بركات الحرية الاقتصادية ، وأهم منها الحرية الفردية » :

وهذه الكلمات التى أنقلها على لسان البروفسور إيرهارت ليست مجرد سطور من كتاب ، ولكنها واقع حقيقى ملموس يحسه زائر ألمانيا الغربية إحساساً بارزاً قبل أن تنقضى على اختلاطه بالناس والمجتمع فى تلك البلاد أيام معدودات .

ايرهارت بعد أديناور

• صانع الرخاء

يخلف « الرجل العجوز » !

عندما كنت فى بون ، أثناء زيارتى لألمانيا الغربية وبرلين ، تقدمت إليه أطلب حديثاً خاصاً « للمصور » . وعند ما اطلع على الأسئلة التى أعددتها قال إنه يسره أن يجيب عليها لسببين : أولهما — تقديره للجهد الذى بذلته فى إعدادها إعداداً قال إنه يقوم على الفهم والدراسة ، والثانى — أنها من صحفى مسئول فى بلد له فى نفسه أعظم قدر من الصداقة والاحترام . وقد اعتبرت السبب الأول مجاملة رقيقة للمهنة التى أتشرف بالانتساب إليها ، واعتبرت الثانى تحية مشكورة لوطنى العظيم . .

وأضاف البروفيسور أيرهارت « وهو الوحيد الذى يحمل هذا اللقب الجامعى بين وزراء الحكومة التى يرأسها الدكتور أديناور » أضاف أنه رفض مئات الطلبات من مختلف الصحفيين العالميين للادلاء بأحاديث سياسية أو اقتصادية لصحفهم . ولكنه يحب أن يدلى إلى بالحديث الذى طلبته ، بشرط واحد : هو أن أمهله حتى أواخر شهر مارس الماضى ، فإذا كنت قد غادرت ألمانيا فإنه يعدنى بإرسال الحديث مكتوباً إلى القاهرة .

وقبلت هذا الشرط ، وفى نفسى حيرة جعلتنى أتساءل : ولماذا أواخر مارس؟ !

وعدت إلى الأسئلة التى أعددتها ، فلم أكد أقرأ أولها حتى فهمت ! إن هذا السؤال يدور حول ما يتردد عن ترجيح ترشيحه رئيساً لحكومة ألمانيا الغربية ، أى مستشاراً ، مكان الدكتور أديناور الذى احتفل يومئذ بعيد ميلاده

السابع والثمانين ! وقد كان هذا الترشيح مثار جدل عنيف لم يقتصر على دوائر الحزب الديموقراطى المسيحى الذى ينتمى إليه كل من الدكتور أديناور والبروفيسور لودفيج ايرهارت ، بل تعداه إلى الصحف الألمانية والعالمية منذ بدأ فريق كبير من الألمان ، من شتى الأحزاب ، بما فيها حزبه هو نفسه ، يطالب « الرجل العجوز » Der Alte كما يطلقون على أديناور ، بأن ينسحب من المسرح ، ويستريح من العمل الشاق الذى نهض به منذ عهد إليه برياسة أول حكومة ألمانية بعد الحرب سنة ١٩٤٩ ، فأعاد لألمانيا هيبتها ومكانتها وكرامتها فى المجتمع الدولى على نحو لم يحلم به مواطنوه أنفسهم يوم وضعت الحرب الثانية أوزارها ، فوجدوا من حولهم خراباً شاملا فى الإقتصاد والسياسة لم يشهد مثله بلد آخر فى التاريخ . وعندما خلا منصب رياسة الجمهورية باعتزال هويس منذ عامين ، فشلت جميع المحاولات لإقناع أديناور بأن الوقت قد حان لاختفائه عن الأضواء كرئيس للحكومة ، وأن أمامه مخرجاً رائعاً بارتقاء رياسة الجمهورية خلفاً لهويس . وبدلا من أن يأخذ بهذه (النصيحة) ، أعجبته الفكرة من ناحية أخرى . إنه هو الذى اختار لودفيج ايرهارت وزيراً فاستطاع هذا خلال الفترة من ١٩٤٩ إلى ١٩٦١ أن يبنى لنفسه شعبية هائلة بسبب نجاحه الساحق فى وضع السياسة الاقتصادية التى قفزت بالاقتصاد الألمانى من الهوة إلى الذروة ، ومن السفح إلى القمة . ولما كانت للطبيعة البشرية أحكامها الأزلية فى نفوس الآدميين من جميع الأجناس والمذاهب والألوان فإن هذه الطبيعة لعبت دورها كاملا فى العلاقات بين المستشار المحنك العجوز ، وبين وزير اقتصاده الذكى اللبق الذى أصبح يقاسمه الشعبية داخل صفوف حزبه خارجها . فلماذا لا يجرب هذه « الوصفة » للخلاص منه ؟ لماذا لا « يركله إلى أعلى » كما يقول الانجليز ، بأن يضعه على الرف مكان هويس فيقصيه عن الحكم والنفوذ ويعطيه الأبهة والمكانة الرسمية الرفيعة .

وهكذا دق جرس التليفون ذات يوم فى الغابة السوداء حيث كان ايرهارت يقضى أجازة قصيرة ، فإذا هو يسمع بأذنه رئيسه الدكتور اديناور يقول له فى لهفة وجد :

— إننى أطلب اليك ترشيح نفسك رئيساً للجمهورية !

وذهل ايرهارت لهذه المفاجأة . وقبل أن يسترد أنفاسه كان « العجوز » قد دعا عشرين من أقطاب حزبه الديموقراطى المسيحى لاجتماع سرى عاجل أعلن فى أثره رسمياً نبأ ترشيح ايرهارت لأرفع منصب فى الدولة . . . وكان اديناور قد ظفر بتأييد الأقطاب لهذه الخطوة باعتبارها ضرورة حيوية ، لانقاذ الحزب من هزيمة محققة لو لم يتقدم بترشيح شخصية قوية ذات مكانة « شعبية » مثل ايرهارت للوقوف فى وجه كارل شميث مرشح الحزب الاشتراكى الديموقراطى فى انتخابات الرياسة .

* * *

ولكن هذه المناورة البارعة لم تنطل على ايرهارت ولا على أغلبية الحزب الديموقراطى المسيحى . فلم تلبث العاصفة أن هبت بعنف على المستشار العجوز الذى أراد أن يتخلص بلباقة من أكثر الوزراء شعبية ونفوذا فى صفوف حزبه وخارجها ، ولم تهدأ العاصفة إلا بعد أن اتخذت الأغلبية قرارا يقضى بالإبقاء على ايرهارت وزيراً للاقتصاد ، حتى يجىء الوقت الذى يخلف فيه اديناور فى منصب المستشارية عند ما تنتهى مدته سنة ١٩٦٥ . وقد رشح الحزب بعد ذلك أحد وزراء اديناور الآخرين : وهو الدكتور هينريخ لوبيكه ، الذى يتولى الآن

رياسة الجمهورية ، بينما احتفظ كل من الدكتور اديناور والبروفيسور لودفيج ايرهارت بمنصبه .

وهكذا قدر لمسرحيـة الصراع على المستشارية بين الصديقين اللدودين أن تستمر طوال العامين المـاضيين ، وأن تتخذ فى بعض الأحيان صورة من العنف والتحدى العلنى لم يستسغها الذين يقدرون ما للرجلين من مكانة رفيعة وما لهما من فضل لا ينكر فى بلوغ المـانيا المرتبة السياسية والاقتصادية التى بلغتها بعد هزيمة جعلت أعزة أهلها أذلة .

كما اتخذ هذا الصراع فى أحيان أخرى طابعاً وصفته الصحف بأنه «صبيانى» لا يليق بالـكبار ، فمن غمزات متبادلة ، إلى تشنيعات يرددها المتشيعون لـكلا الرجلين الـكبيرين ، ومن تسرب للمـكاتبات السرية بينهما إلى تخاصم علنى فى قاعة البوندستاج (مجلس النواب الاتحادى) ، حيث جلس أخـيراً كلا الزعيمين فى ركن بعيد لـكيلا يصافح أحدهما الآخر ! !

وأذكر فى هذا المقام أننى سألت المتحدث الرسمى باسم الدكتور اديناور قبيل قدومى إلى القاهرة :

— هل أصبح من المقرر الآن أن يعتزل اديناور منصبه قبل نهاية العام ؟

فقال وهو يهز رأسه ويقلب كفيه :

— إنه هو شخصياً لم يعلن ذلك !

— ولـكن فون برنتانو أعلن ذلك أخيراً ؟

— نعم ، ولـكن التاريخ على كل حال لم يحدد ... وليس الدكتور اديناور

متمسكا بمنصبه رغبة فى الحكم ، بل لأنه يخشى ألا يكون خليفته فى المستوى الذى يجعله يتمسك بسياسته الداخلية والخارجية معاً !

قلت — مثلا ؟

قال : هناك أكثر من مثل . هناك الصداقة الألمانية الفرنسية التى كانت هدفاً من أعظم أهداف اديناور .. وقد حققها على أمتن أساس بعد ألف عام من الخصام بين الجارتين الأوربيتين الكبيرتين . وهناك الحرية الشخصية بأوسع معانيها فى قاموس الديموقراطية . ويهم اديناور ألا يتعرض هذا الكيان الديموقراطى المتين لأية هزة على يد خليفته !

ولم أشأ مجادلة محدثى فى النقطة الأخيرة بالذات ، تقديراً لمنصبه الذى ربما يفسر تجاهله لما هو معلوم عن الدكتور اديناور من طغيان شخصيته القوية على حرية خصومه وأنصاره على السواء . وهو من هذه الناحية أشبه ما يكون بالبانديت نهرو فى الهند ، حيث يتمتع بشخصية لها من تاريخها ، وقوتها ، وسحرها ، وشعبيتها ما يسلب خصومها وأصدقاءها — أرادوا أو لم يريدوا — تكافؤ الفرص فى الجدل واتخاذ القرارات . وقد حدثت خلال إقامتى فى ألمانيا تطورات خطيرة فى موضوع مجلة (دير شبيجل) — أى المرآة — كانت كفيلة بأن تطيح بأى مستشار آخر أقل هيبة ومقاماً من اديناور ، فلما انتهى الأمر تحت ضغط الرأى العام إلى اضطرار اديناور إلى إقالة صديقه وزميله جوزيف شتراوس عن وزارة الدفاع لتدخله غير المشروع فى شئون القضاء واتصاله المباشر بالنيابة ، وراء ظهر وزير العدل للقبض على صاحب المجلة ورئيس تحريرها وعدد من محرريها بحجة إفشاء أسرار الدولة ، لم يتحرج « الرجل العجوز » من إقامة

حفل تكريم الوزير المقال ، قال له فى ختامه متحدياً بعد ثناء عاطر على كفاية شتراوس ووطنيته :

— لا أقول لك الوداع ، بل أقول إلى اللقاء حتى تعود مرة أخرى لخدمة بلادك كما كنت ! !

وشتراوس هـذا كان أقرب المرشحين لخلافة اديناور لو ترك الأمر للرجل العجوز ولو لم تقع حادثة مجلة « شبيجل » التى أفقدت اديناور أقوى المرشحين الذين كان يعول عليهم فى حربه التى لم تهدأ لاقصاء ايرهارت عن خلافته ، إلى أن صدر قرار الأغلبية من أعضـاء الحزب الديموقراطى المسيحى بأن يكون « رجل الرخاء » أو « صاحب المعجزة » خليفة اديناور فى منصب المستشار من شهر أكتوبر القادم ، إلى أن يخوض الحزب معركته الانتخابية القادمة تحت قيادته سنة ١٩٦٥ ، وهى السنة التى تنتهى فيها المدة التى كان مقـدراً أن يظل اديناور خلالها يزاول مهام منصبه الخطير ، وهو يخطو نحو عامه التسعين ! !

لقد ظل ايرهارت ينتظر صـدور هذا القرار الحاسم بترشيحه عدة أعوام . ولعله كان يتوقع أن يصدر فى أواخر مارس الماضى — وهو الموعد الذى حدده للافضاء بحديثه الخاص (للمصور) — فلم يخب ظنه كثيراً ، لأن القرار أعلن فى النصف الثانى من شهر أبريل بأغلبية ١٥٩ صوتاً ضـد ٤٧ . وبهذا أسدل الستار على معركة الترشيح داخـل الحزب الديموقراطى المسيحى ، لتبدأ معركة الانتخاب بعد عامين ضـد مرشحى الحزب الاشتراكى الذى يتزعمه أريك أولنهاور . والحزب الديموقراطى الحر الذى يرأسه الدكتور أريك منده .

ويشترك ايرهارت مع اديناور فى أن كليهما تجاوز سن الإحالة للمعاش . . .

فالأول فى السادسة والستين والثانى يجتاز الثامنة والثمانين ! وكلاهما ينتمى لحزب واحد هو الحزب الديموقراطى المسيحى الذى يحكم الآن مؤتلفاً مع حزب الأحرار وكلاهما عن ضحايا الاضطهاد الهتلرى . إذ عزل اديناور من منصبه كعمدة لمدينة كولونيا ، وجرد من حقه فى الاشتغال بالمحاماة فى عهد النازية ، بينما أقصى ايرهارت سنة ١٩٤٢ عن منصبه كمدير لمعهد أبحاث الأسواق ، ولكنه استمر فى العمل مديراً لمكتب خاص أنشأه لهذه الأبحاث الفنية نفسها . حتى إذا وضعت الحرب أوزارها عينته الحكومة العسكرية الألمانية فى مايو سنة ١٩٤٥ مستشاراً اقتصادياً لولاية بافاريا التى ينتمى اليها .

وعهد إليه بمهمة تنظيم الصناعة فى منطقة نورنبرج — فورت ، وعين بعد ذلك وزيراً للتجارة والصناعة فى أول وزارة محلية ألفت بولاية بافاريا ، ثم وزيراً للاقتصاد بها . وفى مارس سنة ١٩٤٨ عين مديراً للشئون الاقتصادية فى منطقة الاحتلال الثنائى « الإنجليزية — الأمريكية » ، ثم انتخب عضواً بمجلس النواب الاتحادى (البوندستاج) سنة ١٩٤٩ على مبادىء الحزب الديموقراطى المسيحى ، واختاره اديناور فى ذلك العام وزيراً للشئون الاقتصادية فى وزارته ، وفى سنة ١٩٥٧ وقع عليه الاختيار بعد نجاحه الباهر فى إنشاء المارك الألمانى وإنعاش ألمانيا الاقتصادى ، ليكون نائبا للمستشار ورئيسا للجنة الوزارية الخاصة بالشئون الاقتصادية التى يطلقون عليها « مجلس الوزراء الاقتصادى » .

ويذكر ايرهارت أيام كفاحه الأولى فى بناء الاقتصاد الألمانى فيقول :

— أمامى قصاصات من الجرائد التى صدرت خلال تلك السنوات الأولى لعملى مديراً للادارة الاقتصادية فرنكفورت ثم وزيراً للشئون الاقتصادية فى بون . وكانت الجرائد فى ذلك الوقت تطلق علىّ نعوتاً منها : « وزير الشئون الاقتصادية

عدو المستهلك » ، « ايرهارت — وزير الصناعة الثقيلة » ، و « الملاك الحارس للمختزنين ومضاربى السوق السوداء » ، إلى غير ذلك من الصفات والنعوت . وقد اختفت هذه الاتهامات بالطبع من زمن طويل . وكف حتى ألد خصومى عن نعتى بتلك الصفات . وكانت هذه ثمرة جهودى الطويلة وكفاحى المستمر ضد ممثلى أصحاب المصالح الكبرى فى الاقتصاد الألمانى ، مما أثبت لهم أننى أبعد ما أكون عما ظنوا بى من الظنون .

وقد كان من أعنف الهجمات التى تعرض لها إيرهارت ، وروى قصتها هو نفسه فى كتابه الفذ « الرخاء للجميع » ، حملة الحزب الاشتراكى فى الاجتماع السادس والثلاثين لمجلس النواب الاتحادى (البوندستاج) فى شهر فبراير ١٩٥٠ .

وقد تولى قيادة هذه الحملة الدكتور نولتنج وزير الشئون الاقتصادية إذ ذاك لولاية شمال الراين فستفاليا ، (وقد توفى بعد ذلك) مستنداً إلى زيادة عدد المتعطلين إلى مليون ونصف مليون سنة ١٩٤٩ ، فقال إن حالة البطالة لم تكن أسوأ قط بعد الحرب مما كانت يومذاك ، وأنه لا يبدو بصيص من الأمل فى الاستقرار الاقتصادى . وهاجم الدكتور إيرهارت هجوماً حاداً لإصراره على تحرير السوق من جميع القيود ، وقال : « إن سطحية الدكتور إيرهارت فى تفكيره قد وضحت للعيان ، كما وضح أنه مريض بحب السيطرة وفرض الرأى على الآخرين ، ولهذا ضاعت كل نصائح الحزب الاشتراكى وتحذيراته وذهبت كالهباء » .

وفى مرحلة أخرى من المناقشات العاصفة قال الوزير الاشتراكى نفسه :

— إن سياسة الدكتور إيرهارت الجامدة قد أدت بنفسها إلى مأزق لا مخرج

منه . فإن تدخل الدولة فى الإنتاج ، وإن لم يكن مرغوباً فيه ، يصبح ضرورة محتومة فى بعض الحالات . ولكن الدكتور إيرهارت يقول إن شيئاً من التنظيم الصغير فقط مستحيل ، كاستحالة وجود جنين يظل صغيراً لا يكبر قط . ونحن نقول إن المستقبل لن يرى الدكتور إيرهارت إلا كدكتور فاشل ضئيل ! !

وقد رد البروفيسور إيرهارت على هذا الهجوم الشخصى العنيف قائلا :

— إن سياستنا الاقتصادية قد أوجدت فى حياة الألمان هدفاً يعيشون من أجله . إنها أعادت إلينا حرياتنا الديموقراطية الأساسية : حقنا فى اختيار العمل وحرية المستهلك الكاملة ، وبفضلها عاد إلى الألمانى إيمانه بالعمل وبقيمته هو نفسه . وإليها يرجع الفضل فى الاحتفاظ بثبات نقدنا وسلامته ، وفى نجاحنا فى بناء تجارتنا الخارجية من العدم . إن مبادىء سياستنا لن تتغير ، ولكننا مستعدون بحكم الظروف العالمية (إشارة للحرب الكورية) لتغيير الوسائل والإجراءات . إننا نرغب فى الاحتفاظ بالحرية كاملة . ولكننا نعلم أننا بحكم تلك الظروف مضطرون لإدخال بعض التنظيم المنطقى الرزين ، أى من قبيل ذلك التدخل الذى يرغب فيه الحزب الاشتراكى ، والواقع أننى كنت فى موقف بالغ الحرج . فإن حالة العالم لم تكن تسمح لنا باستيراد أية مواد أساسية دون أن نتقبل بعض القيود .

ثم يستطرد إيرهارت فيقول :

— لقد كنت شخصياً أشك فى جدوى هذه الوسائل ، والواقع أننى ، بشىء من المكر ، تمكنت من حماية ألمانيا من تلك القيود ، وذلك بنشر بعض الإحصائيات فقط دون الكل . وقد أثبتت التطورات العالمية بعد ذلك صدق نظرتى فى أن القيود لا تفيد .

ويشرح إيرهارت في مناسبة أخرى أساس إيمانه الذي لا يتزعزع بالحرية المطلقة كأحسن وسيلة لإنعاش الاقتصاد الألماني ، أو على الأصح بعثه من العدم الذي كان قد صار إليه في أعقاب الحرب العالمية الثانية ، فيستعير تشبيهاً طريفاً من كرة القدم قائلا :

— إن المتفرجين في مباراة لكرة القدم يضايقهم حتما ويغيظهم أن يعلموا أن هناك اتفاقا بين اللاعبين على عدد الأهداف التي يحرزها كل فريق ، إذ هم قد دفعوا ثمن التذاكر ليتفرجوا على مباراة نزيهة قائمة على التنافس الحر . وعلى هذا النمط أتصور أن اقتصاد السوق أساسه توفير حرية المنافسة . وهذا لا يتم إلا إذا حميناها من أي عنصر يعمل على خنقها ، ووضعنا لها الضمانات القانونية التي تكفلها .

ويجب أن يأخذ القارىء العربي هذه الآراء والنظريات بتحفظ لا بد منه . وهو أن ما يلائم بلداً معيناً في ظروف معينة ، وقد لا يلائم بلداً آخر في ظروف أخرى . فنجاح هذه السياسة في ألمانيا بعد الحرب على يد إيرهارت ، لا يعني أن تطبيقها يؤدي إلى مثل هذا النجاح في أي بلد آخر .

والسؤال الذي يتردد الآن على ألسنة المراقبين السياسيين في شتى أنحاء العالم هو :

— هل يتغير طريق السياسة الألمانية على يد إيرهارت بعد أديناور ؟

والجواب على ذلك متروك بالطبع للمستقبل . ولكن الذي يمكن أن نستشفه من الماضي والحاضر على ضوء اتجاهات إيرهارت وآرائه هو أن الاندفاع نحو فرنسا سيخف إلى حد ملحوظ بعد اختفاء أديناور من مسرح السياسة الألمانية ،

فالمعروف عن إيرهارت أنه يكره أن يضحى بروابط ألمانيا مع بريطانيا لحساب هذه الصداقة .

ومن ناحية أخرى يتوقع المراقبون ترجيح كفة النزعة الديموقراطية على الهيبة الشخصية فى ظل حكومة إيرهارت الذى تحدث إلى بعض زواره خلال الأيام الأخيرة فقال :

— إن الجمهورية الألمانية بعد أربعة عشر عاماً من « الحكم القوى » فى حاجة إلى فترة من الحكم أكثر هدوءاً ، بحيث تتخذ القرارات بالإجماع بعد أن يقتلها البرلمان بحثاً . . أى أن الوقت قد حان لكى يعود النظام الديموقراطى إلى ألمانيا الغربية ! !

ولعل من المناسب فى ختام هذا التحليل السريع للموقف بعد أن صدر قرار الحزب الديموقراطى المسيحى باختيار البروفسور لودفيج إيرهارت خلفاً للدكتور أديناور ، أن أسجل الملاحظات التالية :

١ — أن هذا القرار لم يصدر إلا بعد ضغط شديد على الدكتور أديناور نفسه . وأغلب ظنى أنه لا يزال رغم صدور القرار عند رأيه فى زميله وخليفته . وخلاصة هذا الرأى أنه لا يصلح مستشاراً لأسباب كثيرة منها أنه — فى نظر أديناور — رجل اقتصاد لا رجل سياسة . والمعروف أن « الرجل العجوز » كان فى الأشهر السابقة لترشيح إيرهارت خليفة له يبذل محاولات مستميتة لإيجاد خليفة آخر ترضى عنه أغلبية الحزب . وقد سمعت فى هذا الصدد أسماء كثيرة كان ألمعها شتراوس — قبل قضية شبيجل — والدكتور شرويدر الذى نجح نجاحا باهراً لم يتوقعه أحد كوزير للخارجية بعد فشله الذريع كوزير للداخلية ، والدكتور

كرونه الذى عينه أديناور أميناً عاما للدونة قبيل اختيار إيرهارت . وربما كان من الطريف فى هذا المقـام أن أذكر أن كراهية إيرهارت لم تكن قاصرة على أديناور وحده ، بل هى قد شملت أيضا عدداً كبيراً من خاصـــة المستشارين والمتحدثين باسمه . وعندما سألت أحد أصـدقائه الـكبار عن عبارة واحدة يستطيع أن يصور بها إيرهارت قال لى وهو يسرح ببصره فى سقف غرفة مكتبه الأنيقة الواسعة فى وزارته :

— عبارة واحدة ؟ إنك تستطيع أن تقول إنه الرجل الذى وصل إلى النجاح عن طريق الدعوات الطيبات !!

قلت :

— كيف ؟ أليست نظرياته الاقتصادية وخبرته الطويلة هى التى أدت إلى النجاح الذى يعترف به الجميع للرجل فى تحقيق « المعجزة » ؟ !

فتململ فى مقعده وهو يقول :

— الذى أقصده هو أن إيرهارت لم يصل إلى هذه النتيجة من طريق إجراءات عملية محدودة ، بل فعل كما يفعل أى إنسان فى عرض الطريق ، إذ يقف ليتحدث إلى الناس بما ينبغى عليهم هم أن يفعلوه من اتباع القواعد الصحية السليمة لينجوا من المرض ... فهى عملية « نصح » و « دعاء » لا أكثر ولا أقل !!

قلت :

— ولـكنها نجحت ، أليس كذلك ؟

أجل ، ولـكن بالنصح والدعاء ، كما قلت لك !!

إلى هذا الحد وصلت الخصومة بين محيط المستشار الذاهب ، ومحيط خليفته القادم الذى يكيل بالطبع لأديناور صاعاً بصاع فى الأروقة والمجالس ، ويفرك يديه فرحاً بالحملات اللاذعة التى طالما شنها خصوم « الرجل العجوز » ، لتمسكه بأهداب الحكم ، ولأسلوبه الدكتاتورى فى إدارة شئون البلاد ، حتى أصبح وزراؤه مجرد سكرتيرين تنفيذين يصدعون بأوامره ، ولا يجرؤون على تحدى آرائه ، ولا يشعرون بحرية فى العمل تتيح لهم أن يصرفوا شئون وزاراتهم دون أن يضطروا للتلفت من خلفهم خوفاً من غضب رئيسهم المدلل « العجوز » الذى يحبونه ويخشونه فى وقت واحد ، رغم إدراكهم لإحساس الرأى العام إزاء تشبثه بمقعد الحكم ، ورفضه الانحناء تحت وطأة أعوامه الثمانية والثمانين !

٢ — حقيقة أخرى من الحقائق التى يجب أن تذكر فى هذا المقام أن خروج أديناور من منصبه الخطير كأقوى مستشار عرفته ألمانيا بعد الأمير بسمارك — أول مستشار لألمانيا بعد توحيدها على يديه — لا يعنى اختفاء عصاه السحرية تماماً من جو السياسة الألمانية . فأمامه بضعة أشهر قبل تنفيذ قرار حزبه باعتزال الحكم فى شهر أكتوبر القادم . فإذا شاء استخدام هذه الأشهر المعدودة فى تقويض مركز سلفه المنتظر الذى تقرر أن يقود الحزب فى الانتخابات العامة القادمة — سنة ١٩٦٥ — فإن الأمل يصبح ضئيلاً حقاً فى أن يفوز المسيحيون الديمقراطيون فى هذه الانتخابات .

وقد يتعذر على الذين لم يرقبوا النشاط السياسى فى ألمانيا عن كثب أن يصدقوا احتمال استمرار الدكتور أديناور فى مناوأة إيرهارت رغم انتهاء معركة « الخلافة » بقرار صدر بأغلبية ١٥٩ صوتاً ضد ٤٧ (وامتناع ١٩ عضواً عن التصويت) . ولكن على هؤلاء المتشككين أن يذكروا أنه بعد صدور هذا

القرار بأيام أجرى التلفزيون الألمانى حديثاً مع أديناور قال مراسل (ألأوبزرفر) فى هامبورج إنه تضمن فى عبارته الأخيرة فقط تأكيداً « بخضوعه التام » لقرار الحزب ، ولـكن بقية الحديث كان عبارة عن سرد لعيوب إيرهارت ونقط ضعفه فى نظر المستشار ، الأمر الذى أذهل رجال التلفزيون فقصوا معظم الحديث !!

ويؤيد ما قلته عن دور أديناور فى السياسة الألمانية خلال الأشهر القادمة ، وما بعدها إلى أن يحين موعد الانتخابات سنة ١٩٦٥ — يوم يكون أديناور على عتبة التسعين من عمره — ما كتبته جريدة (الإكسبريس) الفرنسية فى أوائل شهر مايو الماضى من أن مستقبل تجربة إيرهارت سيتوقف إلى حد كبير على موقف أديناور . فهو قادر على أن يؤثر فى مستقبل هذه التجربة أبلغ التأثير ولهذا كتبت صحيفة كبرى فى فرنـكفورت تقول إنه حتى إذا لم يكن السياسيون الألمان قادرين على أن يخسروا فى القمار بكياسة فينبغى على أديناور أن يبذل قصارى جهده لتيسير مهمة خليفته . ولـكن موقف أديناور تجاه منافسه المنتصر — على الرغم من العناق والأحضان — ما زال محفوفاً بغموض خطير .

٤ — تقبلت الدوائر العالمية قرار ترشيح إيرهارت خلف لأديناور بمشاعر مختلفة ، طبقاً لنظرة كل منها إلى مصالحها الخاصة . وأبرز مثل على ذلك موقف الدوائر الفرنسية من ناحية والدوائر الإنجلوسكسونية من الناحية الأخرى . فالمعروف عن إيرهارت أنه لا يتحمس كثيراً ، ولا يحب أن يقيم وزناً كبيراً ، للاتفاقات الثنائية ، فهو يؤثر النظرة « العالمية » الشاملة على النظرة « المحلية » الضيقة . ومن هنا اختلفت وجهة نظره اختلافاً واسعاً مع وجهة نظر زعيمه ورئيس حكومته أديناور إزاء المعاهدة الألمانية الفرنسية التى يعتبرها أديناور أعظم إكليل توج به حياته السياسية لإنهاء عداوة دامت أكثر من ألف عام بين الشعبين

الفرنسى والألمانى . وفى سبيل هذه المعاهدة ضحى المستشار المعتزل بالآمال الضخمة التى كان يعلقها المعسكر الأنجلوسكسونى عليه يوم ذهب إلى فرنسا ليلتقى بصديقه اليوم وعدوه بالأمس ، الجنرال شارل ديجول رئيس الجمهورية الفرنسية ، فى أعقاب الصفعة المدوية التى وجهها الرئيس الفرنسى لبريطانيا بإيصاد باب السوق الأوربية المشتركة فى وجهها ، فلم يشأ المستشار الألمانى الداهية أن يثير ذرة من الشك أو سوء الظن أو خيبة الأمل فى نفس الرئيس الفرنسى بالاستجابة إلى الضغط الإنجلوسكسونى عليه ، ومطالبة ديجول بإعادة النظر فى قراره العنيف برفض السماح لانجلترا بدخول السوق الأوربية المشتركة . اما إيرهارت فلم يكن قط مؤمناً بهذا الاندفاع (العاطفى) الذى يبديه أديناور نحو ديجول ، بل لقد ذهب خطوة أبعد من ذلك فلم يخف ضيقه (بالفيتو) الفرنسى لإبقاء بريطانيا خارج أسوار المجتمع الاقتصادى الأوربى . وقال إن الرئيس الفرنسى يعلم تمام العلم أن الشعب الألمانى بجميع أحزابة يؤيد دخول انجلترا إلى حظيرة السوق . كما أن إيرهارت لم يتردد فى الإعراب عن رأيه بتحبيذ انضمام الدول الاسكندنافية أيضاً إلى السوق ، وإنشاء منطقة تجارة حرة على أوسع نطاق تكون مفتوحة للصادرات الألمانية . وعقد روابط اقتصادية وثيقة مع الولايات المتحدة تيسيراً لفكرة « المشاركة » بين دول الأطلنطى . فليس غريباً إزاء هذا التباين الكبير بين رأى أديناور وإيرهارت أن يقابل اختياره الأخير لمنصب المستشار بارتياح ظاهر فى الدوائر الإنجليزية والأمريكية ولا سيما أن إيرهارت يذهب أيضاً إلى تسفيه النظرية الفرنسية أو الديجولية الداعية إلى استقلال فرنسا بقوتها النووية الرادعة .

٥ — يتبين مما تقدم أن هناك قدراً من المبالغة فيما يقوله خصوم إيرهارت وهم فى معرض الغض من قدرته على النهوض بأعباء رياسة الحكومة خلفاً

لإديناور — من أنه رجل اقتصاد ليس له خبرة ولا تمرس ولا وجهة نظر محددة في السياستين الخارجية والعسكرية . وأقرب من ذلك إلى الإنصاف والحق أن يقال إن نجاح الرجل المؤهل في انتشال بلاده من الخراب والإفلاس في أعقاب الحرب العالمية الثانية طغى على دوره كوزير مسئول في حكومة أديناور ، بل لعل إيرهارت يستطيع أن يدعي لنفسه — بحق — أنه كان أكثر الوزراء جرأة في الجهر بآرائه السياسية على الأقل في الأسابيع السابقة لاختياره خلفاً لأديناور ، رغم ما كان يعلم من كراهية المستشار له ، ورغم حساسية المستشار فيما يتعلق ببعض المسائل التي تعرض إيرهارت لها بالنقد والتجريح من طرف ظاهر أو خفي ، وأخيراً وليس آخراً رغم الهيبة الهائلة التي جعلت أديناور أشبه ما يكون بالأب أو الجد العجوز الوقور المهيب الذي لا يجرؤ أبناؤه وأحفاده على إثارة غضبه أو رفع أصواتهم بالكلام — وناهيك بالاعتراض والمناقشة — في حضرته .

وفي هذا المقام ينبغي — إنصافاً لإيرهارت أيضاً — أن يذكر الناسون أن ملمسه اللين الذي دعا خصومه أحياناً إلى تسميته « بأسد المطاط » ، لم يمنعه قط في أيام هتلر وبعد سقوط هتلر من تنفيذ ما يراه ، والتمسك به ، ولو كلفه الأمر أن يتخلى عن منصبه ، كما حدث عندما استقال سنة ١٩٤٢ من معهد أبحاث الأسواق الذي كان مديراً له نحو اثني عشر عاماً ، لأنه رفض الانضمام إلى الحزب النازي . وكما اختلف مع المسئولين الأمريكيين الذين اختاروه مديراً للشئون الاقتصادية في منطقتي الاحتلال الأمريكية والبريطانية سنة ١٩٤٨ ، إذ أرادوا الأخذ بنظام الحصص والتحكم في الأسعار ، فألقى بمقترحاتهم في سلة المهملات ، وصمم على أن ينتهج سياسته هو القائمة على الاقتصاد الحر ، والمنافسة التجارية الحرة ، كأحسن سياسة تصلح لبلاده في تلك الظروف .

لقد قيل إن إيرهارت كان يتمنى يوماً ما أن يصبح قائد فرقة موسيقية ... وسنرى فى فترة تجربته خلال السنتين القادمتين ما إذا كانت « عصا السحر » التى استعاض بها عن عصا المايسترو ، فحقق « المعجزة الاقتصادية » ، ستصلح أيضاً لتحقيق المعجزة السياسية . . . فتعقد معاهدة الصلح التى طال عليها الانتظار .



برلين ... إلى الأبد

كان السوفييت والأمريكيون — ولا أقول الشرق والغرب لأسباب سيراها القراء فى سياق هذا الموضوع — قد اتفقوا على أن يبدأوا محاولة أخرى لحل مشكلة برلين .. وكانت هذه أحدث التطورات فى فترة « الغزل » أو « شهر العسل » بين الرئيس كنيدى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ، وبين رئيس وزراء الاتحاد السوفييتى نيكيتا خروشوف ، وقد بدأ شهر العسل هذا من اللحظة التى قرر فيها الأخير ألا يتحدى انذار كنيدى حول القواعد الصاروخية السوفييتية فى كوبا وأن يفك هذه الصواريخ ويعيدها من حيث أتت ، ويجنب العالم ويلات أفظع حرب عالمية ، بأخطر الأسلحة النووية الجهنمية .

وقد كتبت من بون تعليقاً على ذلك قلت فيه :

إن الذين ينظرون إلى ما تحت « القشرة الجامدة » التى تحيط بالعلاقات بين الشرق والغرب ، يلمحون آثار تشقق واضح فى هذه القشرة ، ويدللون على ذلك بأكثر من ظاهرة ، وآخر هذه الظواهر ما أعلنه الرئيس الأمريكى من رفض الاقتراح القائل باعادة الحصار على شواطىء كوبا رداً على تباطؤ الاتحاد السوفييتى فى سحب ضباطه وخبرائه العسكريين من الأراضى الكوبية ، وإيثاره حل هذه المشكلة عن طريق الاتصالات الدبلوماسية والرسائل المتبادلة بينه وبين الرئيس السوفييتى .

وقد كان الأمريكيون حتى الآن يرفضون فى عناد أن يدخلوا فى مباحثات

مباشرة مع الروس لحل مشكلة برلين ، قبل أن يطمئنوا إلى أن هناك أساساً معقولا لإمكانيات النجاح فى مثل هذه المباحثات . ولكنهم فى هذه الأيام لم يترددوا كثيراً ، ولا قليلا ، فى قبول ما اقترحه الزعيم السوفييتى من الدخول معهم فى جولة جديدة لمحاولة الوصول إلى حل لهذه المشكلة التى يعلم الطرفان أنها أشد المشاكل تعقيداً واستعصاء على الحل ، منذ وضعت الحرب أوزارها — أى منذ قرابة تسعة عشر عاماً حتى اليوم .

— فهل بدأ زعماء المعسكر الغربى ، أو على الأقل هل بدأ الأمريكيون ، يغيرون من آرائهم فى مدى استعداد السوفييت للتفاهم حول هذه المشكلة ؟

— هل بدأ الأمريكيون أنفسهم يفكرون فى النزول عن شروطهم الأساسية لقبول أى اتفاق بشأن هذه المشكلة ؟

— وهل حلفاء أمريكا وشركاؤها فى احتلال برلين على علم بهذا التغيير فى الرأى ؟ وما هو رأيهم ؟

— وما هو رأى الألمان أنفسهم ؟

— وما هو مدى الأمل الحقيقى فى نجاح مثل هذه المباحثات ؟

هذه هى الأسئلة التى تتناقلها الدوائر السياسية والصحفية هنا بمناسبة الرد الأمريكى الإيجابى على الاقتراح السوفييتى بدخول الجولة الجديدة فى المحادثات حول برلين .

وللجواب على هذه الأسئلة لابد من وقفة قصيرة — على قدر ما يتسع المجال — أمام التطورات الخطيرة التى صدعت معسكر الغرب فى الأشهر القليلة الماضية .

إن المسئول الأول عن هذا التصدع فى نظر الانجليز والأمريكيين هو ديجول. إنه يمثل عندهم العناد والتعصب ، والغدر والغرور ، والجهل وقصر النظر . . . وغير ذلك من النعوت التى انطلقت بها ألسنة الصحفيين والمذيعين والسياسيين فى كلا البلدين : بريطانيا والولايات المتحدة ، منذ عقد الجنرال ديجول مؤتمره الصحفى المشهور فى شهر يناير الماضى ووجه فيه صفعة مدوية إلى بريطانيا برفضه قبولها عضواً فى السوق الأوربية المشتركة ، وصفعة أخرى إلى أمريكا برفض اقتراحها بانشاء قوة نووية مشتركة داخل حلف شمال الاطلنطى تكون الكلمة الأخيرة فيها لأمريكا !

وأما من ناحية فرنسا ، التى يتكلم باسمها ديجول ، فالمسئولية الحقيقية فى تصدع الجبهة الغربية إنما تقع على عاتق الانجليز والامريكيين معاً . فالانجليز هم الذين ماطلوا وراوغوا فى مفاوضاتهم لدخول السوق الأوربية المشتركة ، مع أن الأمر لم يكن يتطلب إلا أن يضعوا توقيعهم على معاهدة روما لتصبح بريطانيا العضو السابع فى مجموعة دول السوق . . . ولكنهم أرادوا أن يدوروا من وراء المعاهدة . ويجعلوا لأنفسهم وضعاً ممتازاً ، ويدخلوا السوق بشروطهم هم لا بشروط معاهدة روما ! وأما الأمريكيون فهم الذين رفضوا أن يشركوا فرنسا فى « النادى الذرى » ، وهم الذين رفضوا اطلاعها كما يطلعون بريطانيا على أسرار أبحاثهم وتجاربهم النووية ، وهم الذين يريدون أن يسلبوا الدول المشتركة فى أية قوة نووية ضاربة فى أوربا ، حقها فى أن يكون لها أى رأى أو أمر فى استخدام هذه القوة .

وأين موضع المانيا الغربية من هذه المعركة التى وصلت إلى ألوان من السباب والمكايدة والمهاترة لم يسبق لها مثيل بين أى حليفين فى التاريخ ؟

إنه وضع دقيق ، بالغ الحرج ، إلى الحد الذى كاد يستعصى حتى على « الرجل العجوز » — كما يسمون المستشار اديناور — بكل ما عرف به من دهاء وذكاء وشخصية قوية طاغية .

لقد جعل اديناور من أهم أهـداف حياته السياسية — كما قال لى أحد أصدقائه الأقربين — إزالة الجفوة الطويلة التى قامت منـذ قرابة ألف عام بين العنصرين الجرمانى والفرنسى . وهى جفوة أدت إلى ما يعرفه العـالم من نشوب أكثر من حرب بين فرنسا والمـانيا ، ثم إلى نشوب حربين عالميتين وقف فيهما أبناء البلدين وقفة الأعـداء والخصوم الألداء ، وسفك بعضهم دماء بعض على النحو المروع المعروف .

وقد نجح أديناور فى تحقيق هـذا الهدف الضخم ، حتى أصبح التزاور بينه وبين ديجول يتيح لـكلا الشعبين فرصاً سانحة لإظهار مشاعر الود والصداقة بعد طول القطيعة والعداء . وبلغ نجاح اديناور قمتـه بتوقيع معاهدة الصداقة والتعاون فى جميع الميادين بين فرنسا والمانيا . . . وفى هذا الوقت بالذات شاءت الأقدار أن يقع الصدام العنيف بين حليفته وصديقته الجـديدة فرنسا ، وبين حلفائه وأصدقائه الآخرين على جانبى الاطلنطى وهم الانجليز والأمريكيون . . . وتطلع الأخيرون اليه فى لحظة هذه المحنة ليروا ماذا هو صانع ليعيد ديجول إلى حظيرة التفاهم والتحالف و « التعقـل » ، فاذا اديناور يذهب لمقابلة ديجول ، ويخرج وفى جيبه المعاهدة الألمـانية الفرنسية التى تحمل توقيعه وتوقيع عدوه القديم وصديقه الجديد ديجول . . . وفى سمعه دوى الـكلمات اللاذعة التى انتهز ديجول فرصة توقيع المعاهدة ليصبها كالرصاص المحمى فى آذان حلفائه القدامى وخصومه الجدد ، فيقول :

— إن نهر « الراين » على كل حال أضيق من بحر « المانش » ! !

أى أن الصلة التى تجمع بين فرنسا وألمانيا أوثق بحكم الطبيعة من الصلة التى تربطها ببريطانيا .

وخاب أمل الانجليز والأمريكيين فى ادينـاور ، واستشعروا كثيراً من المرارة لأنه لم « يضغط » على ديجول ، ولم يقمع ثورته على حلفائه . ولم يرجعه إلى الصف ، وبعبارة أخرى آثر أن يمضى فى طريقه ، أو أن يحقق هـدفه هو ، وأن يترك النار مشتعلة على أشدها فى معسكر الحلفاء !

ولـكن الذين يعرفون اديناور ، ويعرفون ديجول ، وينظرون إلى الأمور نظرة غير منحازة ولا متحاملة عذروا « الرجـل العجوز » ، ودهشوا لسذاجة الذين توقعوا منه أن يحـاول الضغط على رجل مثل ديجول معروف بعناده ، وصلفه ، ونفوره من محاولات الضغط ، ولا سيما حين يطلب منه أن يغير رأيه بين يوم وليلة .

ومع ذلك فإن هذا المنطق لم يدخـــل حتى الآن فى رؤوس الانجليز والأمريكيين . وما زال الانجليز ينظرون إلى اديناور نظرة تتفاوت شدة وحدة ، لـكنها نظرة فى اتجاه واحـد . هو الاتجاه الذى عبرت عنه احدى الصحف الانجليزية الـكبرى بلا تحفظ حين نشرت خطاباً موجهاً إلى ديجول جاء فيه :

— إننا نحن الإنجليز لسنا فى حاجة إليك ، ولا إلى نبيذك ، ولا إلى عطورك . أما صديقك وحليفك الجديد اديناور ، فخذه أيضاً وضعه أن شئت فوق برج إيفل ! !

وأما الأمريكيون فلم تـكن معظم نغمات سخطهم بمثل هذه الحدة ضد

أديناور ... وإن كانوا لم يملوا ولم يكلوا من تذكيره بمساعدتهم وقروضهم « وقد سددتها ألمانيا كلها وأخذت هي تقرض الآخرين! » والتزاماتهم لحماية ألمانيا والدفاع عن برلين ضد الشيوعية والشيوعيين .

وفي خلال هذا كله بدأت تظهر في الدوائر الأمريكية والإنجليزية نغمات ، أو غمزات ، ذات مغزى لا يخفى على أحد ... فهم يقولون تارة — كما قال أحد زعماء حزب العمال البريطاني أخيراً — أن عودة حزب العمال إلى الحكم ستعني الاعتراف بألمانيا الشرقية إلى جانب الاعتراف بألمانيا الغربية !! وهم يقولون تارة أخرى أنه لا يجوز تعريض السلم العالمي للخطر من أجل التمسك بالدفاع عن برلين الغربية التي يسكنها مليونان من الألمان .. الذين كانوا سبباً في نشوب حربين عالميتين !

والذين يقولون ذلك هم بأعينهم الذين يشيدون بأديناور الذي قاوم هتلر الهتلرية وعزل من منصبه كعمدة لمدينة كولونيا ، وقبض عليه مرتين في أيام الحكم النازي ، وما زال منذ أسندت إليه أزمة الحكم في ألمانيا سنة ١٩٤٨ ، يحرص على التمسك بأوسع معاني الديموقراطية ، ويخشى أن يجيء بعده مستشار لا يتمسك بها إلى هذا الحد !

وهنا يجيء دور برلين الغربية ، وتجيء الأسئلة التي أثرتها في صدر هذا الموضوع حول الأمل الحقيقي في نجاح المحادثات المقبلة بشأنها ، وحول الغرض المقصود من إثارة المشكلة أو مناقشتها على حدة في هذا الوقت بالذات .

إن أمريكا بدخول هذه الجولة في مباحثات تعرف هي أن نجاحها — في الوقت الحاضر على الأقل — شيء يدخل في نطاق « اللامعقول » ... إنما تحقق في الواقع هدفاً آخر . هو تأكيد « زعامتها » في المعسكر الغربي ، رضي بقية حلفائها الغربيين أو كرهوا ...

وقد عاد ديجول مرة أخرى إلى إعلان تمرده على هذه « الزعامة » الأمريكية بقوله : إن أمريكا تستطيع أن تدخل مع السوفييت فى أى مباحثات تشاء حول برلين ، ولكن الحقيقة التى لا تستطيع هى أن تتجاهلها هى أن وجود القوات الغربية فى برلين يقوم على أسس وثيقة مشتركة وقعها السوفييت والحلفاء الغربيون فى انتظار توقيع معاهدة الصلح التى لم توقع حتى الآن مع الألمان .. ولهذا لم يعترف الحلفاء الغربيون حتى الآن ، بالإجراء الذى اتخذه السوفييت من جانبهم وحدهم ، حين سحبوا قواتهم من القطاع السوفييتى فى برلين وسلموا هذا القطاع لألمانيا الشرقية . ومعنى هذا بعبارة أوضح أن فرنسا ليست على استعداد لقبول أى اتفاق حول برلين لا تقره هى نفسها آخر الأمر .

أما بريطانيا فهى لا تعارض المباحثات ولا تشجعها ، وإنما ترقبها فى حذر ، وفى شىء من الارتياح ، لا لأنها ترى أملاً فى نجاحها ، بل لأنها ترى فيها حرية طويلة موجهة إلى ظهر اديناور الذى خانها فى أزمة السوق المشتركة ، وتخلى عنها فى ساعة المحنة ، وأدار ظهره نحو بحر المانش ، متجهاً إلى فرنسا عبر نهر الراين .

إن هذه المباحثات تبعث على الأقل قدراً طيباً من القلق والضيق فى نفس المستشار العجوز الذى يؤرقه ويؤرق جميع الألمان من مختلف الأحزاب أن تفتح أبواب المساومة بين الشرق والغرب ، أو بعبارة أدق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى لتخفيف حدة التوتر بين المعسكرين ، على حساب ألمانيا الغربية وبرلين ، سواء بقبول فكرة الاعتراف بدولتين ألمانيتين أو بسحب القوات الغربية ، كما سحبت القوات الشيوعية من جميع قطاعات برلين ، وتركها « مدينة حرة » ، وهو شىء ينفر منه الألمان أشد النفور ، ويقولون أن برلين الغربية مدينة « حرة » فعلا ... لأنها تتمتع بنظام ديموقراطى حر فى حكمها ... فلا معنى للكلام عن

« تحريرها » ! وهم ينفرون من فكرة خروج قوات الاحتلال الغربية منها ، لأنهم يرون ذلك بمثابة تركها كالجزيرة الصغيرة العزلاء وسط بحر زاخر من الشيوعية يحيط بها من كل جانب ، ولا يكف عن التهديد بالزحف عليها وابتلاعها فى اللحظة المناسبة ، يضاف إلى ذلك أن حل مشكلة برلين يجب أن يشمل المدينة بجميع أجزائها ، فلا يفرض على القطاعات الغربية ما لا يفرض على القطاع الشرقى من شروط أى اتفاق ... بل هم يذهبون إلى أبعد من ذلك بكثير إذ يقولون إن حل مسألة برلين يجب أن يكون فى إطار اتفاق شامل توقع بمقتضاه معاهدة الصلح ، ويتم توحيد ألمانيا . وبرلين بالطبع ، ويترك أمر الحكم فيها كلها لاستفتاء شعبى حر ، تحت إشراف الأمم المتحدة ، لتقرير مصيرها ، أسوة بالدول النامية الحديثة التحرر التى سلمت لها الأمم المتحدة باستعمال هذا الحق ، فما بالك بدولة عريقة كبرى مثل ألمانيا بشطريها .

وبين هذه التيارات المتعارضة ، المتضاربة حتى بين الحلفاء الغربيين أنفسهم ، يستطيع الباحث الجاد أن يفهم لماذا أثيرت حكاية الجولة الجديدة فى المباحثات الثنائية لحل مشكلة برلين ، فى هذا الوقت دون سواه . . . ولماذا ينبغى الحذر الشديد إزاء ما يقال عن احتمالات النجاح فى الوصول إلى أى اتفاق جدى فى هذه المشكلة بالذات .

ومع ذلك فقد يكون من المناسب أن أضيف إلى هذه التحقيق السياسى الذى كتبته فى بون ، نصاً كاملا لرأى الدوائر الرسمية الألمانية ، هو فى الواقع تفصيل لما أجملته فى ختام التحقيق . وغنى عن البيان أنه يتناول المشكلة من وجهة نظر الحكومة الاتحادية التى لا تعترف حتى الآن بحكومة ألمانيا الديموقراطية ، أى الشيوعية ، القائمة بالأمر فيما أصبح يسمى « ألمانيا الشرقية » ، ويصر الألمان

الغربيون على أن يسموه « ألمانيا الوسطى » ، كما بينت في مقدمة الكتاب . وهذا هو نص الرأى الألمانى الغربى كما أذيع فى بون عقب إعلان رغبة الأمريكيين والروس في استئناف المحادثات لمحاولة العثور على حل لمشكلة برلين التى تبدو وكأنها ستظل مشكلة إلى الأبد . يقول الألمان الغربيون رداً على تساؤل المتسائلين : ماذا يريدون وأصدقاؤهم ؟

إنهم يريدون الوصول إلى حل حاسم يريح المدينة الكبيرة من هذه القسمة الجائرة التى تقطع أوصالها .

إنهم يريدون أن تسنح الفرصة أخيراً لـ ١٧ مليون ألمانى الواقعين تحت سيطرة الاحتلال السوفييتى فى ألمانيا الشرقية فى نيـــل حقوقهم الإنسانية وحريتهم .

وأخيراً يطلبون التحقيق العملى للهدف الكبير وهو إعادة توحيد ألمانيا كلها .

إنه من اللازم أن يتمتع سكان برلين جميعاً بحرية الانتقال بين أقسامها الشرقية والغربية بدون أية موانع أو عوائق .

وزيادة على ذلك يجب على القوات المسلحة لألمانيا الشرقية مغادرة برلين لأنه لا حق لها فى البقاء هناك من الناحية القانونية بناءً على الاتفاق الذى لا يزال سارياً ومعترفاً بين حلفاء الحرب العالمية الثانية والذى وقعه الجميع فى سنة ١٩٤٥ باسم اتفاقية بوتسدام .

وقد نصت هـذه الاتفاقية على حق الشعب الألمانى فى الوحدة والحرية وقد التزم الحلفاء الأربعة بالعمل على تحقيق هذا للشعب الألمانى كما أنهم جميعاً اعترفوا

بالحدود التى كانت لألمانيا سنة ١٩٣٧ أى بحدود الدولة الألمانية قبل أن تضم إليها أجزاء من دول أخرى قبل الحرب العالمية الثانية .

أما المناطق الواقعة شرق نهرى الأودر والنايسه والتى تعتبر ذات أهمية خاصة بالنسبة للاقتصاد الألمانى وخصوصاً الاقتصاد الزراعى ، فقد اتفق على أن توضع مؤقتاً تحت إدارة أجنبية حتى يتم عقد معاهدة الصلح مع ألمانيا ويتفق فيها على الوضع النهائى لهذه المناطق .

ومن وجهة النظر الألمانية تعتبر هـذه الاتفاقية بين الحلفاء الأربعة سارية ونافذة .

أما اقتراح سلطات ألمانيا الشرقية بوضع المدينة فترة معينة تحت رقابة هيئة الأمم المتحدة فهو خداع وذر للرماد فى العيون حتى يمكن التخلص من قوات الاحتلال التابعة للدول الغربية .

ومنذ عدة سنوات كان البعض يعتقد أن سلطات ألمانيا الشرقية لن تتورع عن استخدام القوة للوصول إلى أغراضها اعتماداً على جيشها البالغ عدده مائة ألف جندى كامل التسليح مضافاً إليهم قوات الاحتلال الروسية القوية الموجودة فى مناطق ألمانيا الشرقية .

ولكن العالم كله يعرف الآن أن استخدام القوة فى الوصول إلى أهداف معينة أصبح أمراً لا يمكن قبوله أو السماح به .

أما أصدقاء ألمانيا الاتحادية من الدول الغربية فقد أعلنوا بلسان رؤساء دولهم وبلسان المسئولين فيها أنهم لن يتسامحوا بأى حال مع أى اعتداء يقع على حق الشعب الألمانى فى حريته ووحدته .

وقد أصبح حق الشعوب فى تقرير مصيرها حقاً مشاعاً لـكل الشعوب . ومن الطبيعى أن يتمتع الشعب الألمانى أيضاً بهذا الحق .

وإنه لمن الحقائق التاريخية أن الشعوب الرازحة تحت سيطرة حكومات شيوعية محرومة من حقوقها الاجتماعية والازدهار الاقتصادى الذى تتمتع به غيرها من شعوب البلاد التى تعيش فى نظام اقتصادى حر .

والشعب الألمانى فى تاريخه الطويل مرت به فترات تمتع فيها بوحدته كما مرت به فترات تمزقت فيها وحدته ووقعت مناطق منه تحت سيطرة أجنبية . وبالرغم من ذلك فإن وحدة الشعب الألمانى التى تمثلها وحدة اللغة والحضارة باقية وحية فى ضمير الشعب الألمانى وستظل كذلك تؤدى تأثيرها على التفكير الألمانى فى الوحدة والتماسك فى جميع الميادين بين كل الناطقين بالألمانية .

ومن حسن الحظ أن حلفاء ألمانيا الاتحادية وأصدقاءها يعرفون هذا ويساعدون على الوصول إليه .

ولهذا فإن الدوائر السياسية فى بون تعتقد أن نجاح أية مفاوضات أو محادثات بشأن برلين يعتمد أولا على الاعتراف الـكامل بحق الشعب الألمانى فى تقرير مصيره .



كنت فى قلب العاصفة

عندما أصبحت ألمانيا أمل الغرب الوحيد فى لم الشمل بين الحلفاء !

كتبت هذه الرسالة من قلب العاصفة ، من بون ، العاصمة الضئيلة التى اتخذها الألمان الغربيون مقراً مؤقتاً لحكومتهم ، فأصبحت بعد ثمانية عشر عاماً من انتهاء الحرب تمثل آخر خيط من الأمل فى أن يسترد الحلفاء الغربيون وحدتهم التى نسفها ديجول برفضه قبول بريطانيا بالسوق الأوربية المشتركة ورفضه اشتراك فرنسا فى قوة نووية موحدة — مع دول حلف شمال الأطلنطى — لا يكون من حق أية دولة أن تنفرد باستخدامها .

لقد تحسس الإنجليز والأمريكيون وجوههم من الألم والخجل إثر تصريح ديجول ، وأعلنت مصادر واشنطن أن الضربة أصابت مكاناً عميقاً فى قلب الحكومة الأمريكية ، ولا سيما أن الرئيس الفرنسى صاغ عباراته بأسلوب فيه من القسوة ، ومن السخرية ، ومن الصراحة ، ما جعل طعناته تغوص إلى الأعماق . ولم يراع صنوف المجاملة التى صدرت عن الرئيس كنيدى نحو الرئيس الفرنسى ، ونحو العلاقات الأمريكية الفرنسية .

أما دوائر لندن فقد اهتزت كما لا تحب أن يعهدها الناس قط . وصرخت جريدة الديلى اكسبريس غداة اجتماع أديناور بديجول : « يا للعار والمذلة ! إننا نحاول الآن أن نقتحم باباً لا يراد لنا أن ندخله » ! وترددت عبارات «الخيانة» و « الإهانة » على ألسنة المعقبين السياسيين والصحفيين الإنجليز .

والواقع أن ديجول لم يكن منطقياً مع طبيعته ، ونفسيته ، وغروره الشخصى، كما كان فى هذه المرة .

إن ديجول يعتقد اعتقاداً لا يداخله أدنى شك أنه رسول العناية الإلهية فى القرن العشرين لإنقاذ كرامة فرنسا وإعلاء مكانتها ، تماماً كما أوحت الأصوات إلى جان دارك فيما مضى بأن تقود الجيوش الفرنسية وتطرد الإنجليز من بلادها، وتعيد حكمها إلى ولى العهد المخلوع .

وديجول بهذا الإدراك ، وبهذا الغرور العميق يتصرف فى السياسة الدولية: كأن بلاده لم تسحق أمام جيوش ألمانيا فى أسبوع أو أسبوعين ، ولم تسترد حريتها وكيانها الحالى كإحدى الدول « الكبرى » إلا بانتصار الإمريكيين والبريطانيين والسوفييت على القوات الهتلرية .

ما هؤلاء الإنجليز ؟ وما هؤلاء الروس ؟ وما هؤلاء الأمريكيون ؟

ما هم ؟ ومن هم حتى يحسب لهم حساباً أو يعير قراراتهم واتفاقاتهم سمعه ، أو يعاملهم بأقل من هذا الاستعلاء ، وهذا « الإملاء » الذى صنعه حين وقف مندوبه ووزير خارجيته كوف دى مورانيل فى وجه بقية الأعضاء الستة فى السوق الأوروبية المشتركة ، وهم يتناقشون فى بروكسل حول الصدمة التى أحدثتها تصريحات الرئيس ديجول ، وقال لهم ما معناه :

— أيها السادة ؟ إننى لا أفهم معنى هذا الجدل الذى تخوضونه فى موضوع مضى وانقضى ؟! لقد قال الرئيس ديجول إنه لن يسمح لبريطانيا بدخول السوق المشتركة فلا محل لهذا النقاش الذى تخوضونه . إن علينا الآن أن نطوى المناقشة

ونجمع أوراقنا ، ونفض اجتماعنا إلى أجل غير مسمى ، أى إلى أن يطرأ فى جدول الأعمال شيء جديد !

هكذا ، بكل بساطة موجعة تحدث وزير خارجية فرنسا إلى وزراء خارجية إيطاليا ، وبلجيكا ، وألمانيا ، وهولندا ولوكسمبرج الذين هرولوا إلى الاجتماع إثر تصريحات ديجول ، وراحوا يبحثون عن صيغة أو « محلل » يوفق بين هذه التصريحات وبين المحافظة على « هيبة » بريطانيا الجريحة ، وفتح الباب لدخولها فى يوم من الأيام !

ورسمت الصحف البريطانية صورة ديجول فى ملابس أحد ضباط الاستعمار الفرنسى فى أفريقيا ، وأمامه وزراء الدول الخمس يضربون بفئوسهم أمامه وهو يراقبهم مكتوف الذراعين ... وقد كتب تحت هذا الرسم « أحلام ديجول الاستعمارية » !! وسبحان من سخر الاستعمار للسخرية من الاستعمار !!

وديجول إلى جانب هذه النعرة الوطنية الجارفة التى تجعله يندفع إلى مواقف ليس لها ما يسندها من الواقع أو التاريخ ، رجل لا ينسى شخصه أيضاً ..

إنه فى هذا الموقف يرد الصاع صاعين . لـكلا الحليفين الغربيين !

إنه لا ينسى مثلا موقف هارولد ماكميلان منه إثر اغتيال الجنرال دارلان فى شمال أفريقيا : حيث كان ماكميلان يمثل الحلفاء هناك . وقد حاول ديجول يومئذ كزعيم للفرنسيين « الأحرار » أن يستغل هذا الحادث ليفرض نفسه ورأيه على الموقف كله فى شمال أفريقيا ، ولـكن تشرشل وماكميلان وقفا منه وقفة الرفض والصد ، وقيل يومئذ إن ماكميلان صرح بأن ديجول إذا لم يلزم حدود

التعقل والصبر الآن فإن بريطانيا أو أمريكا ستهملانه فى المستقبل أشد الإهمال فلا يصبح شيئاً على الإطلاق ! .

وديجول لاينسى أن الإنجليز والأمريكيين معا لم يطلعوه على حقائق الموقف العسكرى والسياسى إبان الحرب ، وبلغ من عدم ثقتهم به ، واستهتارهم بوجوده أنهم أخفوا عنه خبر اليوم المحدد للنزول على شواطىء فرنسا نفسها !

وديجول لا ينسى أن الإنجليز والفرنسيين حتى بعد الحرب ، وحتى الآن ، رفضوا أن يدخلوه فيما سمى بالنادى الذرى ، رغم إلحاحه وإلحافه فى رجائهم أن يطلعوه على آخر المعلومات ، ليمكن بلاده من أن تنزل معهم إلى ميدان الإنتاج الذرى .

والآن وجد ديجول بين يديه فرصة العمر :

إن بريطانيا تتوسل اليوم ، ومنذ ١٨ شهراً ، إلى الدول الست أن تقبلها عضواً فى السوق ، وعضواً فى الهيئة الإدارية الاقتصادية : بشروطها هى ، لا بشروط معاهدة روما .. إن عينها من ناحية على السوق ، وعينها من الناحية الأخرى على كندا واستراليا ونيوزيلندا وسائر دول الكمنولث ! إنها أيضاً تريد أن تتفادى العزلة عن أوربا ، ولكنها تريد كذلك ألا يعنى انضمامها إلى الدول الست فقدان مركزها « الخاص » كدولة كبرى .. وهبوط صوتها إلى حيث يتساوى مع صوت هولندا وبلجيكا ولوكسمبرج !

وفى هذه اللحظة الحرجة اختار ديجول أن يلكم أنف ما كميلان : ويلطم هيبة بريطانيا لطمة مدوية فى العالمين ، فيعلن أنه لا يراها صالحة للدخول فى المجتمع الأوربى أو سوق الدول الست .. وأن مفاوضاتها طالت فى غير طائل .. ويضيف

إلى ذلك أنها قد تصلح من حالها حتى تصبح لائقة لدخول السوق .. ولكنها لن تدخله طالما كان هو فى الحكم !

إهانة ظاهرة .. وشماتة ظاهرة .. ونكاية ظاهرة !

ولكن السؤال هو :

— هل يملك ديجول أن يوصد الباب فعلا دون دخول بريطانيا الآن ... وإلى أمد طويل !

والجواب كما رأيته فى العاصمة الألمانية :

— نعم .. بلا لف ولا دوران :

إنهم — أى الانجليز والأمريكيين — يعلقون آمالا على وساطة الشيخ الألمانى المستشار العجوز أديناور ، ويرون أنه الإنسان الوحيد فى عالم الغرب الآن الذى يستطيع أن يفاتح ديجول فى التساهل ، ولو إنقاذاً لماء الوجوه ، لقد أعربت الدول الخمس عن رغبتها فى دخول بريطانيا ، ولو إكراماً لخاطر أمريكا التى تضغط منذ حين لتوحيد أوربا الغربية ، وجعل بريطانيا جسراً بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية .

ولكن هذه الدول الخمس لا تستطيع أن تلوى ذراع ديجول مهما لوح بعضها « بعقوبات » قد ترغم فرنسا على التراجع ، وتضطر ديجول إلى معاودة النظر فى قراره الذى قال الأمريكيون أنهم يرجون أن يكون « نكسة لا كارثة » !

لقد قيل مثلا — فى أوربا — إن ألمانيا الغربية تستطيع أن تهدد ديجول بقطع المبلغ الضخم الذى تسهم به فى صندوق إعانة الدول المتخلفة المرتبطة بالسوق . .

وهو يبلغ نحـــو ١٠٠ مليون مارك ألمانى سنوياً ، يذهب معظمها إلى الدول الإفريقية المرتبطة بفرنسا ، لتشترى به بضائع من فرنسا !

ولـكن هذا التهديد وهمى ، لأن ألمانيا الغربية لن تقدم عليه ، كما أعلم من أدق المصادر . إن شيخ ألمانيا العجوز قد استطاع بجهد الجبابرة أن يصل مع فرنسا — من طريق صديقه العجوز الفرنسى ديجول — إلى وفاق رسمى ، وشعبى أيضاً كما ثبت من زيارة ديجول لهذه البلاد ، وزيارة أديناور لفرنسا . وإذا قبل أديناور أن يقول كلمة لديجول ، تحت ضغط أمريكا وبعض دول السوق الأخرى وبعض ساسة ألمانيا نفسها ومن بينهم وزير خارجيته شرودر الذى عرف عنه منذ حين ، جنوح إلى علاقات أوثق مع بريطانيا وأمريكا . . وعلاقات أقل توثقاً مع فرنسا ، فإن أديناور لن يجازف قط بشعرة واحدة من الحبل المتين الذى يربط بلاده بفرنسا ، من أجل زرقة عيون ماكميلان . .

فالذين يعلقون الأمل الـكبير ، أو الأمل الوحيد ، فى إنقاذ وجه المعسكر الأنجلو — أمريكى ، على زياره أديناور لديجول — يبنون قصوراً فى الهواء .

إن ديجول عنيد إلى أقصى حد ، وعنجهيته الشخصية والسياسية تجعله يمضى فى عناده إلى غير حد ، والتهديد ، بالعقوبات الاقتصادية ، أياً كان مصـــدره سيزيده عناداً على عناد . وهو يملك حق ، الفيتو ، فى السوق الأوروبية المشتركة ولن يتردد فى استعماله حتى إذا أجمعت الدول الخمس الباقية على ضرورة قبول بريطانيا . وهو ما استبعد أن يحدث .

والتـكهنات المعقولة هنا هى أن دول السوق حين تجتمع لاستئناف المناقشة ، أو على الأصح المناقشة فيما إذا كانت هناك جدوى من استئناف المناقشة ، ستجد نفسها فى المأزق الذى وضعتها فيه فرنسا يوم طلبت وقف المناقشة . . وقد تنفض

بلا قرارات على الإطلاق . . ثم يصدر تفسير يفيد أن هذا لا يعنى أن باب الدخول قد أغلق تماماً فى وجه بريطانيا : وهذا أضعف الإيمان !

ومعنى هذا أن انقسام المعسكر الغربى من الناحية الاقتصادية والسياسية والعسكرية سيظل حقيقة بارزة إلى أجل غير قصير .

وبينما تبرز هذه الحقيقة فى عالم الغرب ، فإن حقيقة مثلها أصبحت بارزة أيضاً فى معسكر الشرق ، بعد ما جرى فى مؤتمر الأحزاب الشيوعية فى برلين الشرقية من هرج ومرج ضد ممثلى الصين الشعبية عندما بدأوا يهاجمون يوغوسلافيا ، ويعرِّضون بالزعيم الروسى نيكيتا خروشوف ، وقد جرى فى المؤتمر عندئذ صفير وضجيج بالأيدى والأقدام وانفض المؤتمر بالانقسام الأيديولوجى على أشده بين الصين الشعبية وألبانيا من ناحية وبين الاتحاد السوفييتى وسائر دول المعسكر الشيوعى من ناحية ثانية .

وقد يكون ذا مغزى فى هذه المناسبة أن أذكر ملاحظة عابرة سمعتها حين نقلت إلينا الإذاعات أن انفجاراً شديداً وقع فى الجانب الشرقى من برلين حيث يقيم بعض الشخصيات السياسية البارزة ، فقد كان معى على مائدة العشاء أحد الألمان الذين ليس بينهم وبين الشيوعية حب مفقود . . بل إن بينه وبينهم على العكس دما مسفوكا بأيدى القوات السوفيتية التى دخلت برلين فى نهاية الحرب . ولكن هذا الألمانى حين سمع بالنبأ وجم لحظة ثم قال :

— أرجو ألا يكونوا قد أصابوا خروشوف بسوء فى هذه اللحظات بالذات !

وهو تعبير طبيعى جاء وحى اللحظة ، يدل على مبلغ الاطمئنان الذى أخذ يتسرب إلى النفوس خارج المعسكر الشيوعى ، والذى ينبع من الخلاف المذهبى

بين خروشوف وزعماء الصين حول حتمية الحرب المزعومة التي ينادي بها الأخيرون ، وإمكانيات التعايش السلمي التي يتمسك بها خروشوف .

وبعد . . فهذا عرض سريع للموقف السياسي العالمي كما شهدته من نافذة العاصمة الألمانية المؤقتة : بون . ومن هذا العرض قلت إن المرء يستطيع أن يلمح في أفق الخلاف داخل معسكر الشرق ، والخلاف الذي لا يقل عنه شدة داخل معسكر الغرب ، شواهد من شأنها أن تقلب خريطة التكهنات السياسية ، رأساً على عقب فلا يستبعد أحد أن يقترب العالم بسرعة من اللحظة التي يتوقعها المؤرخ الكبير أرنولد توينبي ، وهي اتفاق المعسكر السوفييتي وحلفائه مع المعسكر الغربي على وقاية البشرية من الخطر الذي يتهددها : قادماً من الشرق الأوسط .

لقد مضى علينا نحو نصف عام على هذه الصورة التي رسمتها من العاصمة الألمانية الغربية (المؤقتة) للموقف الدولي إثر كارثة بروكسل التي أصابت المعسكر الغربي بصدع شديد . وقد تحقق بالفعل ما تنبأت به . فلا أديناور (ضغط على ديجول للعودة إلى الصف) . . . ولا ديجول تساهل في موقفه من محاولات بريطانيا دخول السوق المشتركة ، والشيء الوحيد الذي لم يتحقق بعد . . . هو نبوءة توينبي التي قال إنها قد تتحقق في فترة تتراوح بين ٥ سنوات و ١٠ سنوات . ومن يعش يره !

صور لها قصص وذكريات

فى الصفحات التالية مجموعة من الصـــور التى التقطت خلال زيارتى لالمانيا الغـــربية وبرلين .

ان لكل صورة منها قصة . . .

ولكل قصة منها تفاصيل يحتاج سردها الى مجال أوسع ، وأفسح .. ولهذا رأيت أن اجتزىء عن الشرح والاسهاب ، بعبارات وجيزة ، على قدر ما تســـعف به الذاكرة ويتسع المجال



الرجل الخارج .. يلقى نظرة على وادى الراين

قال عنه تشرشل : « انه أعظم مستشار فى تاريخ المانيا منذ ايام بسمارك » اول مستشار « اى رئيس وزراء » لالمانيا . وعندما ألقى القبض عليه بأمر هتلر سنة ١٩٣٣ ، وأودع زنزانة فى « برافيلر » ، كتب مدير السجن يطلب سرعة الافراج عنه لانه يحتضر ، وأفرج عنه بالفعل لاسباب صحية اذ ذاك : فى انتظار الساعة التى يلفظ فيها آخر انفاسه طبقا للتقديرات الطبية « الحليمة » .. وكان عمره يومئذ سبعة وخمسين عاما ! ولكن علم الله فوق كل علم ... فقد سقط الحكم النازى ، وعاش الدكتور كونراد اديناور . ليحتفل فى الخامس من شهر يناير الماضى بعيد ميلاده السابع والثمانين .. وهو أشد ما يكون تصميما على الاستمرار فى ادارة دفة الحكم فى المانيا الاتحادية الى سن التسعين وما بعد ذلك ، اذا لم يستمر الضغط عليه لاعتزال الحكم وافساح المجال لمن هو اكثر شبابا منه . وقد رفع خليفته المنتظر ، وصديقه « اللدود » لودفيج ايرهارت كاسه فى الاحتفال المشار اليه وقال موجها الكلام لزعيمه ورئيسه العنيد أديناور :

— لنشرب نخب عيد ميلادك السابع والثمانين . راجين ان يأتى العام القادم وانت اكثر هدوءا وراحة !

وفهم « العجوز » الازرق الناب هذا التلميح الماكر الذى كان اديناور يتمنى العمى ولا يتمنى ان يأتى اليوم الذى يخلفه هو فى منصب المستشارية ، فرد قائلا :

— اننى اعترض . فليست هذه ذكرى ميلادى السابعة والثمانين كما تقولون . بل اننى احتفل بذكرى ميلادى الثلاثين فقط !

ومع ذلك لم يكن مما ليس منه بد . واضطر الرجل الذى لم ينحن تحت ضغط النازية ، ولا تحت اثقال أعوامه السبعة والثمانين ، بما حفلت به من أحداث جسام . الى ان يحنى رأسه للعاصفة ، وأن يخضع لها لضغط حزبه نفسه فيوافق على اعتزال الحكم .. وعلى ما هو أمر من ذلك ، وهو قبول لودفيج ايرهارت خليفة له فى شهر أكتوبر القادم ..

وفى هذه الصورة التى التقطت « للعجوز » يوم الاحتفال بعيد ميلاده التاريخى المذكور . نراه يقف فى شرفة كرمته بقرية « روندورف » ، التى تقع على نهر الراين قرب مدينة بون ، ويلقى نظرة وادعة ، هادئة على وادى الراين الذى شهد نهوضه ، ونهوض المانيا من السفح الى القمة على يديه .

ومن طريف ما يذكر انه لا يزال يصعد ويهبط درج كرمته ، وعددها ٥٤ درجة ، فى كل يوم على قدميه ، ويرفض أن يسمح لسيارته بالوصول الى باب الكرمة فى ذهابه وايابه !

والرجل القادم يحملق في

ان لودفيج ايرهـــارت ، الذى اصـــبح « وليا للعهد » ، أى مرشحا رسميا لمنصب المستشار (رئيس الوزراء) فى المانيا الغربية ، رغم العراقيل الهائلة التى وضعها المستشار الحالى الدكتـــور كونراد اديناور فى طريقه ، ينظر هنا الى المستقبل . فى ثقـة لا تخلو من قلـــق قد يفسر حملقته الظاهرة فى الفراغ ؛ وهو يترك سيجاره الفاخر يرســـل دخانــه العطر فى هــــدوء واسترخاء ...

لقد استطاع ابن بائع «البياضات» أن يصنع لبلاده « المعجزة الاقتصادية » التى يتحـــدث عنها العـــالم منـــذ شـــهد صعود الاقتصـــاد الالمانى من الخراب والافلاس فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، الى الرخاء والاستقرار بعد بضع سنوات من اسناد وزارة الشئون الاقتصادية الى ايرهارت .

ان ايرهارت ـ اذا سار كل شيء على ما يرام ـ سيصبح مستشارا لالمانيا فى أواخر هذا العام ، ولــكن الطريق أمامه مازال مليئا بالاشواك والصـــخور . حتى ان المراقبـــين السياسيين لا يستبعدون ان يواجه حربا خفيـــة وظاهرة من خصومه وأصدقائه وزملائه على الســواء ، وفى مقدمتهم الدكتور اديناور نفسه . .

« فالرجل العجوز » لم ينته بعد . . ولن ينتهى حتى بعد اعتزاله الحكم اذ ان أديناور لا يزال يتمتع باحترام عظيم ، وســـيظل سنوات أخــرى عنصرا فعالا فى السياسة الالمانيـــة عامـــة ، وفى الحـــزب الاشتراكى الديموقراطى الذى انشأه وما يزال يرأســـه بوجه خاص . فاذا نسى خصـــومته العنيفة ، وغيرته الهائلة من زميله ، ونائبه ، وخليفته ايرهارت ، استطاع الاخير ان يبلغ ما يرجـــوه من نجاح واستقرار ، والا فلا أحـــد يعلم كيف ينجو هو وحزبه من الفشل والهزيمة على يـــد الحزب المنافس الذى اصبح فيلى برانت ، محـــافظ برلين وحاكمها ، أقوى شـــخصية ، فيه وان لم يكن هو رئيسه .

وما علينا الا ان ننتظـــر لنـــرى هل جاء ايرهارت ليبقى ، او ليكون « قنطرة » ، كما يقول حســـاده وخصومه ، فيعبر الحزب الاشتراكى من فوق ظهره فى الانتخابات القادمة (سنة ١٩٦٥) ، ليضعوا مكانه من يشاءون : سواء اكان اديناور زعيمهم أو فيلى برانت . فتاهم المدلل !

المستقبل

المستشار القادم : البروفيسور لودفيج ابرهارت ، يصافح السيد ابراهيم صبرى سفير الجمهورية العربيه المتحدة فى بون ، الذى تجمعه به رابطة من الصداقة المتينة عندما قدم اليه السفير وساما من ارفع أوسمة الجمهورية العربية المتحدة



البروفيسور لودفيج ايرهارت ...



ان أقوى شخصية في برلين الغربية ، هي من غير شك شخصية فيلى « بالفاء المخففة » برانت ، محافظها وحاكمها في وقت واحد . اى انه يجمع في يديه سلطة محافظ المدينة ، وسلطة حاكم « اللاند » اى الولاية ، باعتبار برلين الغربية ولاية من الولايات الاحدى عشرة التى تتألف منها المانيا الغربية . وان كان لبرلين ، كما ذكرت في مواضع أخرى ، وضع خاص من حيث علاقتها ببقية المانيا الغربية ، وبالحكومة الاتحادية المركزية في بون .

ان برانت في الخمسين من عمره . فهو أصغر من أديناور بنحو سبعة وثلاثين عاما ، ومن ايرهارت بنحو خمسة عشر عاما . وهو بعد الرجل الثالث في الحزب الاشتراكى الديموقراطى الذى يراسه أريك أو أديناور ، ويليه نائبه المناور الذكى هربرت فينر ، ولكن كلمة الحزب اتفقت على استغلال شعبية برانت ، ولاسيما في برلين ، بحيث يكون هو المرشح القادم لمنصب المستشار في الانتخابات ، وبذلك تزداد فرص الحزب في النجاح امام ايرهارت الذى يستمد شعبيته الهائلة من نجاحه في تحقيق « المعجزة الاقتصادية » .

ويرى بعض المراقبين ان جانبا كبيرا من العطف الذى يتمتع به برانت عند الناخبين يرجع الى غلطة نفسانية ارتكبها الدكتور ادیناور أثناء المعركة الانتخابية التى دارت رحاها في أواخر سنة ١٩٦١ ، اذ قال ان المانيا لاتريد أن يحكمها مستشار ليس له أب معروف ! فأحدثت هذه الغمزة الشخصية القاسية اثرا عكسيا لدى الرأى العام ، وازداد هذه الاثر وضوحا في الانتخابات التى جرت في شهر فبراير الماضى ، اذ اكتسح منافسيه ، وانتخب عمدة برلين مرة أخرى بأغلبية ساحقة ، وفاز الحزب الاشتراكى الذى ينتمى اليه بنحو ٧٠٪ من أصوات الناخبين بينما فاز الحزب الديموقراطى المسيحى « حزب الدكتور أديناور وبروفيسور ايرهارت » بنحو ٢٩ فى المائة فقط من هذه الاصوات !

ويرى في الصورة فيلى «ويكتبونه بالعربية خطأ ويلى برانت » ومعه زوجته وأحد ولديه ، عند عودته من زيارة للعاصمة الامريكية . وهو يعتبر من دعامات الدعوة الصهيونية في المانيا . وقد زار اسرائيل أكثر من مرة . ووعد بزيارة بعض الدول العربية ولكنه لم يفعل .



فيلي برانت العمدة والحاكم معا في برلين الغربية ،عقب عودته من زيارة الولايات المتحدة الامريكية في أوائل هذا العام . ومعه زوجته واحد ولديه ... هـــــل يعـــبر الى الحكم فـــوق « قنطـرة » ايرهـــــارت ؟ ! . . .



مآسى التقسيم والحائط

في هــذه المجموعة من الصور يستطيع القارىء ان يتبين بعض ابعــاد المأساة التى تعتمل فى صــدور الالمان عنــدما يحدثونك عن تقسيم المانيــا ، وعن «حائط العار» ، كما يسمون الجدار الكئيب الذى رأيته عندما زرت برلين ، وهو الجــدار الذى شطر العاصمة الالمانية القديمة شطرين ، ومزق شمل ساكنيها ، ففرق بــين الاخ واخيه ، والابن وأبيه،واثار عديدا لا يحصى من الآلام والاحــزان ، والمناقشات والمصادمات ، والحملات السياسية ، والمناورات الحزبية .

لقد حقق الحائط الفرض الاساسى من اقامته فى ١٣ اغسطس سنة ١٩٦١ وهو صــد تيار الهجرة الجماعيــة لشعب المانيا الشرقيــة الى الغرب من طريق المدينة التى تقع فى وسط المانيا الشيوعية كالجزيرة الصغيره فى البحر الكبير . ولكن الدول الغربية بما فيها المانيا الاتحــادية تجد من الحائط وســيلة من انجح وسائلها للدعاية ضد الشيوعية .

وقد وقفت مع صديق المانى يدعى الهر هويفنز ، امام بوابة براندنبرج التاريخية ، التى أصــبحت من أكبر المعــالم الفاصلة بين قطاعى الشرق والغرب فى برلــين . فلما اتجهت لزيارة الشطر الشرقى من المدينة ، بعد ظهر ذلك اليوم نفسه ، اعتذر الصديق الالمانى لعــدم استطاعته مرافقتى ... لا لانه يكره ان يــرى النصف الاخــر من عاصــمة بلاده القــديمة ، بل لانه يقيم فى الشطر الغربى منها ، وتقضى التعليمات التى تتمسك بها المانيا الشرقية والسلطات الســوفييتية ، بأن يدخل الى الشطر الشرقى من المدينــة أى انسان من انحاء العالم ، بما فى ذلك ســكان المانيا الغربية ، مع استثناء واحد هو الا يكون من رعايا برلين الغربية



المؤلف امام بوابة براندنبرج مع الهــر هويفنز وهو موســيقى المانى مهاجر من المانيــا الشرقيــة حيث لا يزال والده يقيــم ولا يســتطيع ان يراه ...

بعض سكان برلين الغربية يلوحون لاقاربهم وراء الحــائط فى برلين الشرقية وقــد رفعوا رءوسهم ليمكنوهم من الرؤية ! ...

وجه مشرق من وراء الحائط!



رياضية هاربة من برلين الشرقية !.

هــذه الفتــاة تدعى جــوندولا بيبنبرج وهى واحــدة من ١٣ فتاة ، متوسط اعمارهن ٢١ سنة

.. يؤلفن فرقة رياضية أولمبية فى برلين الغربية يطلقون عليهــا « العصافير الســوداء » . وقد فزن بالبطولة منذ ١٩٥٥ — ٧١ مرة من ٧٦ ، تحت اشراف مدرب فر سنة ١٩٥١ من المنطقة الشيوعية . وألف هذه الفرقة . ولهذه الفتــاة التى تعرض احــدى قفزاتهــا الاستعراضية الجميلة قصة مثيره ايضا من قصص الحائط . فقــد استطاعت فى ســنة ١٩٦١ ، ان تحتــال على اســاليب الـرقابة الشديدة التى فرضتها حكــومة المانيا الشيوعية ، اذ رقدت تحت المقعد الخلفى لسيارة سبــاق ؛ وتمكنت بذلك من الافلات والهرب الى برلين الغربية !

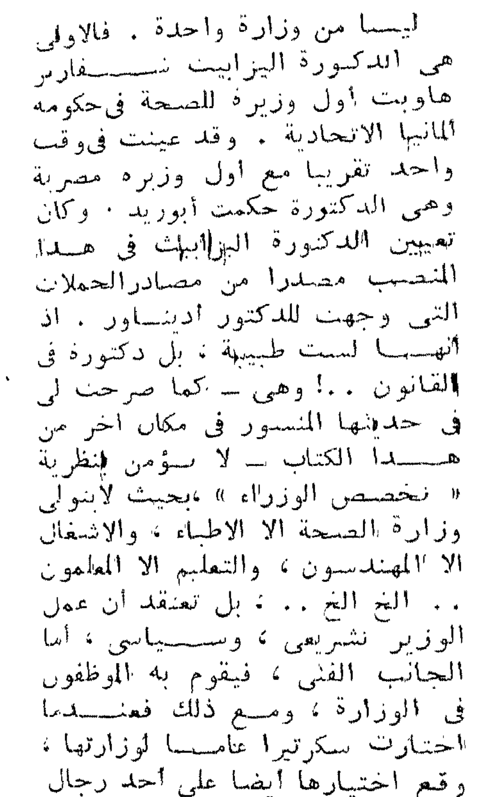
ولقد وجدت فى هذه الصــورة الجواب على سؤال لمرافقى العربى عند العودة الى القطاع الغــربى من برلين .

— مالهم يضغطون على المقعــد الخلفى لسيارتنا عند التفتيش ؟

وقد حسبته بمزح حين قال :

— انهم يرتابون فى أن يكون معنا راكب أو أكثر ، تحت المقعد الخلفى!

مع الوزيرة .. ونائب الوزير



ليسا من وزارة واحدة . فالاولى هى الدكتورة اليزابيث شفارتز هاوبت أول وزيرة للصحة فى حكومة المانيا الاتحادية . وقد عينت فى وقت واحد تقريبا مع أول وزيرة مصرية وهى الدكتورة حكمت أبوزيد . وكان تعيين الدكتورة اليزابيث فى هذا المنصب مصدرا من مصادر الحملات التى وجهت للدكتور اديناور . اذ أنها لست طبيبة ، بل دكتورة فى القانون ..! وهى — كما صرحت لى فى حديثها المنشور فى مكان اخر من هذا الكتاب — لا تؤمن بنظرية « تخصص الوزراء » بحيث لا يتولى وزارة الصحة الا الاطباء ، والاشغال الا المهندسون ، والتعليم الا المعلمون .. الخ الخ .. ؛ بل تعتقد أن عمل الوزير تشريعى ، وسياسى ، أما الجانب الفنى ، فيقوم به الموظفون فى الوزارة ، ومع ذلك فعندما اختارت سكرتيرا عاما لوزارتها ، وقع اختيارها أيضا على أحد رجال القانون ! وبهذا صبت الزيت على النار !

اما نائب الوزير فهو الدكتور ميدلك ، نائب وزير شئون جميع المانيا ، وهو اقدم نواب الوزراء هناك ، وصديق شخصى حميم للدكتور اديناور . وقد سألته خلال حديثنا

— ماهى أهم صفة يمتاز بها الدكتور اديناور ؟

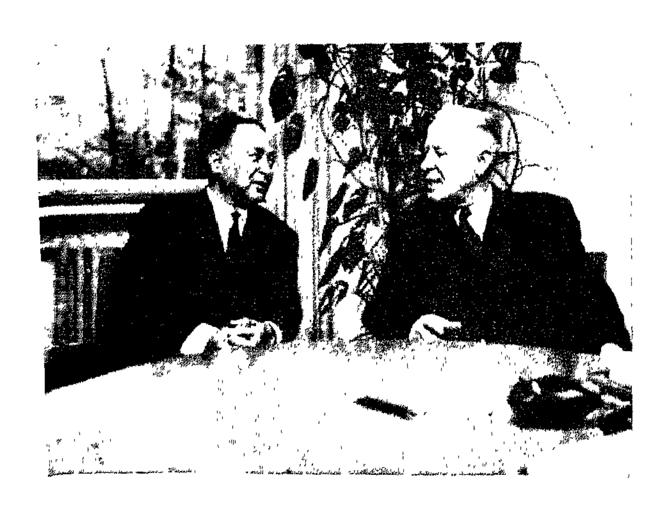
فأجاب على الفور .

— قدرته الخارقة على أن يضع اصبعه على الجانب الواضح من المشكلة المستعصية



مع وزيرة الصحة التى يرى القراء حديثا وافيا لها مع المؤلف فى مكان آخر ..

مع الهرسدك فى بون أقدم نائب وزير فى المانيا الغربية وواحد من أشد المعجبين بالمستشار الخارج ! ...





الشتاء في أجمل تيجانه

لهذه الصورة ذكرى لا تمحى من قلبي .. انها صورة الشتاء كأجمل ما وقعت عليه عيني في بافاريا العليا ، حيث قضيت الفترة بين عيد الميلاد ورأس السنة متنقلا بين « ميونيخ » و« جارميش باتر كيرشن » في درجة حرارة هبطت الى ٢٥ درجة مئوية تحت الصفر ..

هنا ، على مقربة من التيرول ، رأيت أعلى جبل في المانيا كلها ، ويسمونه « تسوج شبيتسة » ، ويصعد اليه السائحون الالمان والاجانب بواسطة مصعد بين جبلين ، ويتسلقه آخرون من هواة التسلق ومحترفيه ، ليشاهدوا من قمته الشاهقة مناظر جبال الالب الساحرة التي تستعصي على النسيان !

فاتنات اليوم في السينما الألمانية

ماريا شل



رومي شنايدر



ايفا دوشا

سألتهم عن المع نجوم السينما الالمانية فى هذه الايام . فذكروا لى أسماء ، بعضها سمعت به من قبل مثل كورت يورجنز ، وماريا شل واخيها ماكسيميليان ، ولكن معظم الاسماء الباقية لم اسمع بها ، رغم اطرائهم الشديد لاصحابها وصاحباتها الذين لم يدخلوا عالم هوليوود .

وهذه صورة ثلاث من اشهر هؤلاء النجوم :





لا ادرى ان كان هذا الفيلم بالذات خير ما كان ممكنا تقديمه للالمان ، كأحد الافلام التى تصور حياتنا او مشاكلنا ، ولكل بلد فى الدنيا مشاكله بطبيعة الحال ، أم أن هناك أفلاما اخرى أجدر بأن نصدر للعرض على الاجانب الذين يسمعون عنها ، ويريدون أن يعرفوا الكثير عن حياتنا وعن مشاكلنا ، وعن فننا ؟ !

ولكن الذى أعرفه أن هناك استعدادا كبيرا لدى الشعب الالمانى لمشاهدة افلامنا ونجومنا ، وهذا احد الاعلانات الصخمة التى رأيتها خلال جولتى فى المدن الالمانية ، بمناسبة عرض فيلم « باب الحديد » .. وقد أبرزت فيه كلمة « القاهرة » كما يلاحظ فى الصورة ..





ليس هذا ملهى « مكسيم » المشهور فى باريس ، ولكنه « مكسيم » آخر فى هامبورج اكبر ميناء على بحر الشمال . ويقع « مكسيم » هذا فى حي من اشهر احياء هامبورج الليلية ، ويسمونه « ريبربان » ، وهو حى حافل بعلب الليل ، وصالات البيرة ، والمطاعم الفاخرة ، واماكن اللهو البرىء والعربيد ، بما فيه رقص المرأة « ستربب تيز » . ويطلقون على هذا الحى من المدينة السياحية والتجارية والصناعية الكبرى « مونمارتر هامبورج » تشبيها له بحى مونمارتر باريس .

خدعة تصور الحقيقة



ليست مدينة شتوتجارت الرشيقة أكثر مدن المانيا الغربية ازدحاما بالسيارات . ولكنى لا أذكر أننى رأيت فى حياتى ، وفى جميع جولاتى ، سيلا متصلا من السيارات يخرج من احدى المدن قبيل الغروب ، كمنظر العمال المنصرفين بسياراتهم الى حيث يقيمون فى ضواحى شتوتجارت بعد انقضاء ساعات العمل فى مصانع المدينة ، ومتاجرها المزدهرة ..

وقد التقطت هذه الصورة بخدعة طريفة قرب ميدان المحطة فى شتوتجارت ، اذ استخدم المصور بابا دائرا قلبت مرآته الى أعلى ، فظهرت الصورة مزدوجة على هذا النحو ، فى ساعة من ساعات المرور الهادئة . وقد بلغت ضحايا المرور فى المانيا سنة ١٩٦١ — ٤٦٣٣ قتيلا و ٧٢٩٩٤ جريحا ، كلهم من المشاة ، وذلك رغم ما اشتهر به الشعب الالمانى من حرص على النظام ، وما اشتهر به رجال المرور فى المانيا من حزم بالغ فى الزام راكبى السيارات والمارة أيضا باتباع قواعد المرور . ان الخدعة فى هذه الصورة لا تبعد بها كثيرا عن الحقيقة !

أغلبية الشعب !

أريد أن أتحدث الآن عن أغلبية الشعب الألمانى . ولا أعنى بذلك الأغلبية الحزبية أو السياسية التى يمثلها هناك الحزب الاتحادى الديموقراطى المسيحى بعدد نوابه فى مجلس النواب ، ويسمونه (البوندستاج) . وإنما الأغلبية التى أريد أن أتحدث عنها هى الأغلبية النسائية . فالمرأة هناك ليست نصف الأمة كما اعتدنا أن نعبر عنها فى بلادنا ، وكما هى الحال فى معظم بلاد العالم ، ولكنها كإحدى نتائج الحربين العالميتين الأولى والثانية اللتين كلفتا ألمانيا خسارة فادحة فى الرجال أصبحت تملك الأغلبية العددية الحقيقية بين أفراد الشعب . ويؤخذ من آخر إحصائية بين أيدينا ، وهى إحصائية منتصف ١٩٦١ أن فى ألمانيا الغربية وبرلين الغربية معاً ٢٦ر٤٠٦ر٤٠٠ من الذكور يقابلهم ٢٩ر٧٦٦ر٨٠٠ من الإناث . أى أن النساء يزدن على الرجال بأكثر من ثلاثة ملايين وثلث مليون امرأة .

إنك لا تستطيع أن تهبط ألمانيا وتبدأ عملك أو زيارتك لأى مكان فيها ، دون أن تجد نفسك وجهاً لوجه أمام نشاط بارز للفتاة الألمانية وللمرأة الألمانية التى عركتها التجربة المرة ، وأذاقتها ظروف الحرب وما بعد الحرب ، طعم الحاجة القاسية إلى العمل والنهوض بالأعباء العائلية بعد فقد الزوج أو الوالد أو الإخوة القادرين أو هؤلاء أجمعين !

إن نحو عشرة ملايين امرأة ينهضن فى ميدان العمل بنصيب ضخم فى بناء ألمانيا الغربية ، جنباً إلى جنب مع الرجال . وهذا العدد يجاوز الثلث من مجموع العمال . أما الموظفون وعددهم نحو ٣ر١٠٠ر٠٠٠ فبينهم نحو السدس أى نصف مليون امرأة . والمتزوجات من هذا المجموع يبلغ عددهن نحو ٥ر٥٠٠ر٠٠٠

امرأة عليهن أن يقمن إلى جانب أعمال الوظيفة بإدارة شئون البيت ، والقيام بواجبات الأمومة . وهى أعباء نستطيع نحن فى البلاد العربية أن نقدر فداحتها، إذا عرفنا أن المرأة هناك لا تتمتع بما يتمتع به عدد كبير من نسائنا الموظفات وغير الموظفات من معونة الخدم فى الأعمال المنزلية ، لقاء أجر زهيد . فإن أجر الخادم هناك ، وهو عادة من النساء والفتيات ، أجر يقصم الظهور . ولهذا قلما يستأجر الخدم إلا الأغنياء وقد قال لى أحد متوسطى الحال المضطرين مع ذلك للاستعانة بخادم فى منزله ، بأنها تتناول منه أجراً قدره أربعمائة مارك ألمانى فى الشهر . وتجلس معهم على المائدة لتناول طعامها ، وتأخذ إجازة (الويك إند) أو عطلة نهاية الأسبوع ، إلا فى الظروف القاهرة ، ولقاء أجر إضافى ! ! والسبب فى ذلك ليس (دلع) العاملة الألمانية أو تشددها ، ولكنها قلة الأيدى العاملة كما قلت ؛ إنه قانون العرض والطلب من ناحية ، وارتفاع مستوى المعيشة العام من ناحية ثانية .

ونسبة التعليم العالى بين النساء — كما لمسته هناك — ممتازة حقاً . وقلما رأيت فى أى بلد زرته ، سواء فى أوروبا أو أمريكا أو آسيا مثل عدد الحاصلات على شهادة الدكتوراه فى الفلسفة أو الاقتصاد أو العلوم السياسية أو شتى فروع التخصص العالى ، كما رأيت فى ألمانيا بالذات ! وهى كثرة لا ينبغى أن تدهش أحداً إذا عرفنا أن عدد الطالبات بالجامعات والكليات فى ألمانيا الاتحادية فى الفصل الدراسى الجامعى لشتاء ١٩٦٠ — ١٩٦١ كان يبلغ ٤٨٫٤١٣ طالبة يمثلن نحو ٢٢٪ من مجموع الطلاب .

ومع ذلك فإن نصيب المرأة الألمانية من المناصب الرئيسية الكبرى فى الحياة العامة لا يتمشى مع هذه النسبة . رغم أنه أكبر من نصيب زميلاتها فى معظم البلاد الأخرى . وقد عينت أول وكيلة لوزارة شئون العائلة والشباب فى الوزارة

الاتحادية عقب انتخابات سنة ١٩٥٧ . ثم خطا مستشار ألمانيا الدكتور أديناور إحدى خطواته الجبارة سنة ١٩٦١ رغم سنواته التي تجاوزت الخمس والثمانين إذ ذاك ، إذ عين الدكتورة إليزابيث شفارتز هاوبت وزيرة للصحة . وكانت توجد قبلها وزيرة للثقافة فى وزارة شمال الراين — فستفاليا ، وهى كبرى ولايات الجمهورية الاتحادية . ولكن الدكتورة اليزابيث شفارتز هاوبت كانت أول وزيرة فى تاريخ الوزارات الاتحادية الألمانية .

وقد كان من حظى الحسن فى خلال هذه الزيارة أن أتشرف بلقاء الوزيرة الاتحادية فى مكتبها بالوزارة ، وأن أتحدث إليها حديثاً مستفيضاً عن وزارتها وعن انطباعاتها بعد زيارة الجمهورية العربية المتحدة فى العام الماضى ، حيث توجد الآن أيضاً أول وزيرة فى تاريخ بلادنا ، هى الدكتورة حكمت أبو زيد وزيرة الشئون الاجتماعية . ومن الطريف أننى سألت الدكتورة شفارتز هاوبت عن الوزارة التى كانت تحب أن تقوم بأعمالها لو لم تكن قد اختيرت وزيرة للصحة فأجابت على الفور وهى تضحك : « وزارة الشئون الاجتماعية . . . » ثم أضافت وهى لا تزال تبتسم : « أو وزارة العدل ... ! » . وهى إجابة لا تدهش الذين يعرفون أن الدكتورة شفارتز هاوبت ليست طبيبة ، وإنما هى تحمل شهادة الدكتوراه فى القانون . . . وقد زاولت عملها بنجاح عظيم فى المحاماة ، فلما اختيرت وزيرة للصحة أثار تعيينها ضجة فى صفوف المعارضة لم تهدأ حتى الآن ، بدعوى أنه لا بد لمن يشغل منصباً وزارياً أن يكون قبل ذلك خبيراً متعمقاً فى الشئون الفنية للوزارة التى يتولاها . وهو رأى يقابله رأى قوى آخر فى ألمانيا وفى خارجها خلاصته أن عمل الوزير ليس فى الواقع فنيا ، بل هو سياسى وتشريعى ، أى أن الوزير هو الذى يرسم السياسة ويحدد الاتجاهات ، متفاهما مع مجلس

الوزراء ، ويترك التنفيذ للفنيين . وتقول الدكتورة شفارتز هاوبت فى تأييد الأخيرة خلال حديثها الشائق معى ، إن هذه النظرية أدعى للتطبيق فى ألمانيا الاتحادية ، حيث تتولى التنفيذ الفنى مختلف وزارات الصحة فى الولايات التى تتكون منها الجمهورية الاتحادية . فهناك إحدى عشرة وزارة للصحة بالولايات الإحدى عشرة التى تسمى كل منها (اللاند) ، والوزراء المحليون فى هذه الوزارات هم الذين ينفذون السياسة العامة ، والتشريعات القانونية ، التى يوافق عليها البرلمان الاتحادى وتعدها وزارة الصحة الاتحادية . فالأمر مختلف عن البلاد الأخرى ، وبينها الجمهورية العربية المتحدة التى قالت الوزيرة إنها كانت تغبط وزيرها الدكتور النبوى المهندس عندما زارته فى مكتبه بالقاهرة ، ورأته يصدر قراراته بتعيين الأطباء وتوزيعهم مباشرة على مختلف محافظات الجمهورية . وهو شىء لا تملكه هى كوزيرة اتحادية مسئوليتها توجيهية وتشريعية ، لا تنفيذية .

وقبل أن أختم هذا الحديث عن المرأة الألمانية التى تمثل — كما قلت — أغلبية الشعب هناك ، أود أن أشير إلى لقاء آخر مع سيدة ممتازة ، ترك فى نفسى أثراً عظيما عن مكانة المرأة فى المجتمع الألمانى الحديث ، وهى البروفسور آن مارى شمل ، أستاذة اللغة العربية والدراسات الإسلامية والأديان المقارنة . وهى مستشرقة تخدم العلم وتخدم الثقافة الشرقية ، عربية وفارسية وتركية وغيرها خدمات رائعة ، وسأتحدث فى مكان آخر من هذا الكتاب حديثاً مفصلا عنها وعن بعض زملائها الذين لقيتهم خلال زيارتى ، وحنيت رأسى تقديراً لتفانيهم فى خدمة الدراسات الشرقية والإسلامية .

حديث مع أول وزيرة

في ألمانيا الاتحادية

الدكتورة شفارتز هاوبت وزيرة الصحة فى ألمانيا الغربية هى أول سيدة تتولى منصب الوزارة هناك . . قالت لى عندما قابلتها بمكتبها فى « بون » إنها كانت تتمنى أن تكون وزيرة للشئون الاجتماعية ، وأن زيارتها لمصر فى العام الماضى غيرت رأيها فى المرأة المصرية التى كانت تظنها ما زالت تعيش فى الماضى . . وقالت الوزيرة إن الهيئات الطبية لا تبدى ارتياحاً لتوليها وزارة الصحة لأنها دكتورة فى القانون لا فى الطب ، ولكنها تحدت الهيئات الطبية وعينت نائباً لها فى الوزارة . . . من رجال القانون ! . . .

ثلاث دقائق تقل ولا تزيد ، منذ دخلت إلى مكتبها فى أحد المبانى الحديثة فى بون حتى كنت أجلس إلى جانبها ، فى المقعد المقابل وبدأت أسئلتى وإجاباتها تتعاقب دون أن يحاول أحدنا أن يلتقط أنفاسه ليلقى نظرة على باقة الزهر الجميلة الأنيقة التى انحنت على المنضدة كأنها تحاول أن تتابع أسئلتى بالإنجليزية وتعقيباتها بالألمانية والإنجليزية !

كان هناك أيضاً مترجم من الشباب العرب يدرس الطب فى ألمانيا ويتكلم الألمانية كأحد أبنائها ، كما كان معنا سكرتيرها الصحفى الذى يحمل قسمات من الممثل الأمريكى المأسوف عليه جارى كوبر ، إلى جانب سمته الوقور ودرايته العميقة بتفاصيل المشروعات والقوانين والمشاكل التى تشغل بال الوزارة والوزيرة .

كنت فى برلين عندما سمعتهم يتحدثون عنها وكانت الأزمة الوزارية محتدمة

حول خروج وزير الدفاع السابق الهر شتراوس كما صممت الأحزاب بما يشبه الإجماع ، وكما لا يريد شيخ الساسة الأوروبيين الدكتور أديناور ، وقيل يومئذ إن الوزيرة الوحيدة في الوزارة ، وهي أول وزيرة في تاريخ ألمانيا ، قد تخرج أيضاً ، ليستريح المستشار أديناور ويريح الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها منذ وقع اختياره في العام الماضي على الدكتورة شفارتز هاوبت لتكون وزيرة للصحة بالذات ! ومع ذلك بقيت الدكتورة شفارتز هاوبت في الوزارة وبقيت معها الضجة التي لا تكاد تهدأ حتى تعود فتشتد لا بسبب إسناد الوزارة إليها فحسب ، بل بسبب إصرار الوزيرة أيضاً على تطعيم المناصب الكبرى في وزارتها ببعض رجال القانون .

قلت للدكتورة شفارتز هاوبت بعد لحظات من تبادل التحية والتقاط الصور الصحفية :

— أظن من الطبيعي أن نبدأ حديثنا بالسؤال عما تركته زيارتك لمصر من انطباعات .

فراحت ترفع رأسها الوقور ، وهي تتحرك برفق في (تاييرها) الأنيق ، ثم تدفقت تروي ذكرياتها وانطباعاتها قائلة : إنه قد مضى على زيارتها لمصر وقت غير قصير ، وأنه لا بد لها من التوقف لحظات لاستذكار ما حدث . ثم استطردت تقول :

— الواقع أن زيارتي لمصر لم تدم غير بضعة أيام ، هي ستة أيام على وجه التحديد ولكنها تركت أثراً عميقاً في نفسي . وقد أذهلني قبل كل شيء ذلك الحزم الشديد الذي يزاول به الدكتور النبوي وزير الصحة مهام منصبه . وأنا

أعلم أن مثل هذا الحزم يمكن الأخذ به فى سهولة ويسر عندما تكون البلاد فى مرحلة الإنشاء والتطور الشامل ، بينما لا يكون الأمر بمثل هـذه السهولة فى بلاد كبلادنا — تعنى ألمانيا الاتحادية — حيث تقيد خطواتنا إلى حد ما تقاليد معينة فى ميدان الصحة العامة . وقد أعجبت مثلاً بأسلوب التخطيط ، وكيف كان الدكتور النبوى يشير إلى مواقع الوحدات الصحية على إحدى الخرائط ثم يقول : «سأرسل إلى هذه الوحدات ما يلزمها من الأطباء والموظفين » ! وأنا أدرك صعوبة المقارنة بين الحالة فى مصر وفى بلادنا ، وبين المتاعب التى نواجهها عندما نحاول إرسال أطباء إلى الأقاليم . فرغم أن كل قرية فى بلادنا تقع على مقربة من إحـدى المدن الكبرى ، ورغم أن الأطباء يستطيعون الوصول إلى تلك المدن بمنتهى السهولة فإننا ما زلنا نواجه مشقة كبيرة فى إغراء الأطباء بالإقامة فى الأقاليم ، ولهذا أعجبت بالسلطة المعطاة للدكتور النبوى لتمكينه بكل سهولة من إرسال الموظفين والأطباء إلى المراكز الصحية فى الوجه القبلى ، كما أعجبت بالنزعة الاجتماعيـة القوية الملتهبة التى يصرف بها مهام منصبه .

وهنا توقفت الوزيرة عن الحديث لتقول :

— إننى لا أريد أن يفهم من كلامى أن تقاليدنا الطبية أقدم من تقاليدكم . . فالعكس هو الصحيح ، إذ أننى أعلم مبلغ ديننا العميق للبلاد العربية بما لها من تاريخ عريق فى عالم الطب ، كما أعلم أن علومنا الطبية الأصلية نبعت من المصادر العربية .

وقبل أن أسأل الوزيرة عن المعونات الفنية التى تقدمها ألمانيا والدول الغربية بوجه عام للبلاد المتطورة ، كانت هى قد بدأت تطرق الموضوع قائلة ، وكأنها كانت مشغولة بالتفكير فى هذه الناحية من قبل .

— إننى أود أن أؤكد فى هذا الصدد أن الأسبقية فى المعونات الفنية يجب

أن تعطى للميدان الصحى . ولا بد أن تستهدف هذه المعونات معالجة الحالات التى يبلغ الناس فيها بين الثلاثين والأربعين مرحلة من المرض تجعلهم غير قادرين على العمل ، بينما الناس فى البلاد الأخرى يبلغون ذروة نشاطهم فى هذه السن . ولهذا أعتقد أنه يجب أن يكون من الميسور ، بل من الضرورى ، أن نتغلب على الأمراض ونضاعف المعونة الفنية الطبية فى البلاد الإفريقية .

وانتقلت الوزيرة من ميدان التعميم إلى التخصيص فقالت إن فى وزارتها قسما لبحث المشاكل الصحية الدولية ، يدخل فى اختصاصاته وضع مشروعات المعونة الفنية فى الميدان الصحى . وقالت إنها معنية عناية خاصة بهذه المشاكل ، لأنها تعتقد أنه فى هذا المجال بالذات يمكن تقديم أكبر نصيب من المعونة الإنسانية ، والاجتماعية والسياسية .

وهناك ، كما قالت الوزيرة ، مشروعات عديدة من هذا القبيل تجتاز مرحلة الدرس والإنجاز .

— فهناك أولا (وهذا نص تصريح الوزيرة) مشروع تصنعه شركة (باير ليفركوزن) لمحو وباء البلهارسيا فى الفيوم . وقد وقع الاختيار على هذه المنطقة لأنها منطقة محكمة الإغلاق ويمكن تطويقها تماماً لمكافحة هذا المرض . يضاف إلى ذلك أن جمهورية ألمانيا الاتحادية تعتزم تقديم أربعة ملايين من الماركات الألمانية لإقامة معهد مركزى لأبحاث البلهارسيا فى القاهرة .

ورأيت أن الجانب الفنى أخذ يسيطر على الحديث فجذبت طرفه إلى الناحية الإنسانية المحضة متسائلا عما إذا كان سيأتى يوم يزيد فيه عدد النساء فى الوزارات إلى الحد الذى يتفق مع نسبتهن العددية إلى مجموع السكان فضحكت ، وهى تهز رأسها علامة الاتفاق معى فى هذا الأمل ثم قالت :

— عندنا مثل يقول: « عصفور واحد لا يكفى لكى يصنع الربيع » !

ورأت الوزيرة فرصة سانحة لتقول كلمة حق فى المرأة العربية الحديثة فقالت:

— دعنى أصرح لك بأننى دهشت أشد الدهشة حين تبينت من خلال زيارتى لمصر ، أن الصورة التى ما زالت سائدة فى أوربا عن دور المرأة العربية فى المجتمع ، قد أصبحت صورة متخلفة عن ركب الزمان ، هذا الحكم يصدق على الأقل فيما يتعلق بالمرأة المصرية . وقد أدهشنى حقاً ذلك العدد الكبير الذى قابلته من النساء اللائى أتممن تعليمهن وأخذن يزاولن المهن التى تعلمنها ، رغم الزواج والأولاد . ومن الأمثلة البارزة فى هذا المقام قرينة الدكتور النبوى التى تعمل طبيبة بأحد المستشفيات ، رغم أن زوجها وزير وأن لها ولداً صغيراً . وقد قابلت كذلك سيدات أخريات كثيرات لا علاقة لهن بصورة المرأة المحجبة التى ما زلنا نجنح إلى تصورها للمرأة العربية . وقد لفت نظرى ما قاله لى الدكتور المهندس من أنه يعتقد أن إسهام المرأة فى الحياة العامة سيزداد مع التطور الصناعى للبلاد .

وكان لا بد أن يجرنا الحديث فى نهاية المطاف إلى الضجة التى تثور حول الوزيرة بين الحين والحين . وكنت أعرف أن من أسباب هذه الضجة المتجددة أنها ليست « دكتورة » فى الطب ، بل فى القانون . وأن اتحاد الأطباء يرى أنه كان ينبغى أن يختار للوزارة طبيب أو طبيبة « إذا لم يكن بد من اختيار سيدة لهذه الوزارة » . فرأيت أن أثير هذه النقطة الشائكة بطريق غير مباشر ، بأن سألت الوزيرة عن الدراسة أو الخبرة التى كانت سبباً فى اختيارها وزيرة للصحة فقالت بلا تردد :

— إننى لست طبيبة ، بل دراستى قانونية ، وقد شغلت خلال حياتى العملية

عدة مناصب قضائية . ولكننا نعتقد أنه فى دولة « فيدرالية » كألمانيا ، حيث لا تزاول الحكومة الاتحادية سوى مهام تشريعية ، وليست مسئولة عن الإجراءات التنفيذية . لا يتحتم أن يكون الوزير خبيراً إخصائياً فى شئون وزارته . ثم إن تحت تصرفه خبراء يستطيع أن يستشيرهم فى أى وقت يشاء . وهذا موقف يختلف تماماً بطبيعة الحال فى بلد أو مدينة لا يقتصر عمل الإنسان على وضع التنظيمات العامة ، بل يمتد إلى اتخاذ الإجراءات التنفيذية اللازمة . وقد رأيت بعين لا تخلو من الحسد كيف كان الدكتور النبوى وزير الصحة يتخذ القرارات مباشرة فيما يتعلق بالمراكز والوحدات الصحية بجميع تفاصيلها ، بينما نحن فى الحكومة الاتحادية مقيدون فى حدود الإجراءات التشريعية المحضة ، وبهذا لا نكون دائماً على اتصال وثيق بالناحية العملية .

ثم أطرقت الوزيرة لحظة قالت بعدها بأعصاب هادئة ، وابتسامة خافتة فيها من الاستسلام للأمر الواقع ، قدر ما فيها من الاعتزاز بالنفس :

— يجب أن أعترف على كل حال بأن هناك شيئاً من الخلاف بينى وبين الهيئات الطبية فى بلدى حول هذه النقطة وهى : هل يتحتم أن تكون مزاولة المهنة الطبية شرطاً أساسياً فيمن يشغل المنصب الأول فى وزارتى أم لا ؟ إن البعض يرون عدم خبرتى بالطب عيباً ونقصاً ... ومع ذلك فإن هذا مجرد خلاف فى الرأى لا مناص من تقبله .

بقى أن أقول إن الوزيرة لم تتردد رغم ذلك فى أن تصب زيتاً على النار ، بأن عينت نائباً لها ... من صفوف رجال القانون !!

الشخصية الألمانية

معالمها عند الفرد وعند الشعب

غرور ليس بعده غرور أن يزعم إنسان ما ، بالغة ما بلغت ثقافته وكائنة ما كانت قدرته على الملاحظة والتحليل والاستقصاء ، أنه استطاع أن يعرف طبيعة أى شعب من الشعوب وخصائصه ، لمجرد أنه قضى بين ربوعه بضعة أشهر أو حتى بضع سنوات .

ولكن الذى يملك أى إنسان أن يتحدث عنه فى أعقاب الاتصال الوثيق بمجموعة من أفراد أى شعب من الشعوب ، هو الأثر ، أو الانطباع الذى رسخ فى نفسه خلال هذا الاتصال ولا سيما إذا استطاع المرء فى بعض اتصالاته وأحاديثه ودراساته أن يتحلل من الطابع الرسمى ، وأن يطلق نفسه من عنان المجاملات والرسميات والتحفظات التى تحاط بها عادة معظم الدعوات لزيارة البلاد الأجنبية ، وقد أقمت فى ألمانيا ، وتنقلت بين أرجائها أكثر من ثلاثة أشهر ، وكان الجانب الأكبر منها خلواً من الرسميات والقيود ، واستطعت خلال هذه الفترة أن أخالط عدداً كبيراً من أفراد الشعب الألمانى ، من مختلف الطبقات وشتى المشارب والمذاهب وعندما غادرتها إلى فرنسا لعمل يتعلق بمنظمة اليونسكو ، لم أطق البقاء فيها أكثر من ثلاثة أسابيع ، وجدت نفسى فى ختامها أبحث عن أول فرصة أغادر فيها العاصمة الفرنسية الكبرى إلى أصغر عاصمة مؤقتة — فى أوربا — وهى بون التى لا يكاد عدد سكانها يصل إلى مائتى ألف نفس ولم يكن غلاء المعيشة فى فرنسا بما يعادل نحو ضعف الأسعار فى ألمانيا هو السبب الوحيد فى لهفتى إلى العودة إلى ألمانيا بل كان هناك سبب آخر لا أجد كلمة محددة تعبر عنه ، ولعله

مجموعة من الأسباب تدور حول « الجو » الإنسانى ، والنفسانى ، الذى يستشعر به الغريب فى اختلاطه بالشعب الألمانى .

لقد التقيت بهذا الشعب بجماعاته وأفراده ، فى المناسبات العامة والخاصة . التقيت بوزرائه ، وعماله ، ونسائه ، ورجاله وطلابه وأساتذته ، وموظفيه وأصحاب الأعمال فيه .

التقيت بهؤلاء وغيرهم فى أوقات عملهم ، وفى أوقات فرحهم ، وأتيح لى غير مرة أن أقيم فى بيوتهم وأن أقف على أطراف من دخائل حياتهم ، وأن أقترب إلى حد كبير من آمالهم وآلامهم وأن أرقب عن كثب تصرفاتهم وحركاتهم ، وأن أستشف من هذه التصرفات والأقوال ، بعض ما يعتمل فى أعماق نفوسهم ثم سألت نفسى بعد هذا كله :

هل عرفت خصائص الألمان حقاً ، وصدقاً ؟ هل أستطيع أن أحدد معالم شخصياتهم كأفراد يضمهم وطن واحد ، وتاريخ واحد ، ومجد طريف وتالد واحد ؟

وترددت فى الجواب . فالذى لا يراودنى فيه شك أننى لا بد قد عرفت أشياء وغابت عنى أشياء ، ولكن ما عرفته خلال إقامتى وتجوالى ، وحلى وترحالى ، من ولاية إلى ولاية ، أو بتعبيرهم الألمانى من « لاند إلى لاند » شىء غير قليل ، بل شىء يستحق التسجيل .

لقد كان أول انطباع ، وأعمق انطباع فى نفسى ، وأنا أستعرض أمام ناظرى شريط الاتصالات والزيارات ، والأحاديث ، والمناقشات ، خلال زيارتى لألمانيا أن أحداً لم يعبر عن حقيقة شعبها كما عبر عنها شاعرهم الخالد جيته حين قال :

« ليست ألمانيا شيئاً ، ولـكن الألمانى كثير بمفرده ، وإن توهم الألمـان عكس ذلك » .

إن الفرد فى ألمانيا اليوم يتمتع بما يشبه القداسة التى تكاد ترفعه فوق مستوى الدولة نفسها ... وهو وضع يكاد الدستور الألمانى يقرره فى صراحة قاطعة إذ يجعل حرية الفرد مكفولة مضمونة ، مقدسة ، لا يحدها إلا أن يحاول هذا الفرد استخدامها ضد النظام الديموقراطى ، والحـكم فى هذه الحالة لمحـكمة عليا يسمونها « المحـكمة الدستورية الاتحادية » .

وهذا التقديس للفرد كـكائن حى يقوم عليه كيان الدولة يتردد كثيراً فى أحاديث المستشار القادم إيرهارت وكتاباته . ومن ذلك قوله :

« إننا يجب أن نحتفظ بروح الاستقلال والحرية يقظة حية فى نفس الفرد .. وأن نقويها يوما بعد يوم ، إذ هى أول عناصر قوته » .

وهذا الشعور بالثقة ، والإستقلال ، والاعتزاز بالنفس ، تلمسه أينما ذهبت فى ألمانيا . يستوى فى ذلك الأسـتاذ العاكف على دراسته فى جامعة جوتنجن أو ماربورخ ، والعاملة التى تقـدم لك الدجاج المحمر فى مطعم (الفيزفالد) — أى غابة فينا — فى بون ، أو تحمل عشرة أقداح هائلة من البيرة فى أصابعهـا العشر وهى تهرول من مائدة ضاحكة إلى أخرى ماجنة فى ملهى « البلاتزل » فى ميونيخ .

وإذا كان لى أن أختار عاملا واحداً أضعه فى مقدمة العوامل التى مكنت ألمانيا من النهوض من عثرتها المدمرة لتصل إلى مكانتها المرموقة الحاضرة ، فإننى أضع الثقة بالفرد فى طليعتها ، فهذه ليست ثقة من الدولة بالفرد وحسب ، وإنما

هى ثقة من الفرد بنفسه قبل كل شيء . ثم هى ليست ثقة مقصورة على ما يراه الفرد « حقاً » من حقوقه المقدسة بل هى مقترنة أيضاً بما يراه هذا الفرد «واجباً» عليه لا يقل قداسة عن حقه .

ومع ذلك فإن هذه الثقة الفردية لم تكن على الدوام مبعث خير وبركة على ألمانيا ، فمن طريقها — فيما أعتقد — فقد بعض زعماء ألمانيا معايير الحكم على الأشياء ، وبلغ بهم الإفراط فى هذه الثقة الفردية حداً أدى إلى قيام حربين عالميتين فى مدى ربع قرن من الزمان ، بين سنة ١٩١٤ ، ١٩٣٩ !

وإذا كانت الثقة بالفرد ، سواء أكانت ثقة الدولة به أم ثقته بنفسه ، هى الطابع الذى لا أتردد فى أن أجعله أولى خصائص الألمانى اليوم ، فإن الطابع الثانى هو الشغف بالعمل . وقد سألت أكثر من ألمانى لقيته بين المثقفين وأنصاف المثقفين هناك عن السر الذى يفسرون به (معجزة البعث) التى رفعت بلادهم من القبر إلى الصبر ، فكان جوابهم فى جميع الأحوال واحداً لا يتغير هو :

— العمل

فأقول :

— ثم ماذا ؟

فيجيبون :

— ثم العمل ! !

وقد يكون من الطريف فى هذا المقام أن أعود بالقراء قرابة ألفى عام إلى الوراء لأنقل إليهم عبارة وردت على لسان المؤرخ الرومانى القديم تاسيتوس ، إذ قال يصف الألمانى إذ ذاك :

« إنهم لا يملكون القدرة على احتمال العمل الشاق أو الجهد المضنى ... إنهم

يمضون وقتاً قليلا فى الصيد ، ولـكنهم يمضون وقتاً أكثر فى الخمول ، مستسلمين للنوم والملذات ... إن جميع أبطالهم ومحاربيهم الأشاوس يضيعون وقتهم هباء وعبساً ، ويتركون العناية بالحقول للنساء ... ! »

لقد قرأت هذه الـكلمات وضحكت ، وعجبت لما يسمونه حكم التاريخ ، أوعلى الأصح حكم المؤرخين على الأمم والأفراد ، من قديم الزمان ! إننى لم أر شيئاً أبعد عن ألمانيا وشعبها من هذه الصورة « التاريخية » التى يلقيها المؤرخ الرومانى « العظيم » بكل هذه البساطة ...

إنه بالطبع لم يكن يتحدث عن ألمانيا بحدودها المعروفة فى العصر الحديث... ولعله كان يتحدث عن إحدى القبائل البدائية التى عرفها قبل الميـلاد ، وقبل تأسيس الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ... والرايخ الألمانى الذى عرفناه من القرن التاسع عشر حتى الآن !

إن العمل عند الألمانى — كما رأيته — دعامة حياته ؛ وهو لا يتحرج ، ولا يتأفف ولا يستنكف من أداء أى عمل ، ما دام عملا شريفاً ، يكفل له حقه فى العيش والاحتفاظ له بكرامته . والـكرامة فى هـذا المقام ليست مبنية على أية عقدة نفسية من العقد التى يتوارثها الناس أو يكونونها من طريق التقاليد السخيفة أو التصورات السقيمة القائمة على الجهل .

إن الإسم الضخم ، واللقب العريق ، والمجد العائلى التليد لم تمنع كلها أو أحدها أحد بارونات ألمانيا ، وهو البـارون فون منتاوفل من أن ينحنى بنفسه على حقائبى يوم وصولى إلى بون ، ويحملها بمعونة ابنه الطالب الجامعى إلى الطابق الأعلى فى الفندق الصغير (البنسيون) الذى يديره فى شارع شلوس (أى القصر) بالعاصمة الألمانية !

والإسم الضخم ، والمجد العريض ، والمركز السياسى والإجتماعى المرموق لم تمنع كلها فراوهيس قرينة رودلف هيس نائب المستشار (أى رئيس الوزراء) فى عهد هتلر ، من أن تعيش اليوم بكدِّ يدها ، وبمعونة ابنها المهندس ، من طريق إدارة (بنسيون) آخر قرب الحدود الألمانية النمسوية . وقد كنت على مقربة من هذا (البنسيون) عندما زرت مدينة (جارميش بارتنكيرشين) الجميلة . وعلمت هناك أن فراوهيس تعانى أزمة نفسانية أشد من أزمتها المالية ، لأنها ترفض ما يعرضه عليها الحلفاء الغربيون من كتابة إقرار بأن زوجها « مجنون » لكى يفرجوا عنه من معتقله الحربى فى معسكر سبانداو ، حيث يمضى أيامه منذ نقلوه بعد انتهاء الحرب من بريطانيا ، وكان قد طار إليها فى إبان الحرب ليعرض على تشرشل وحلفاء الغرب صلحاً يمكن هتلر من تحويل دفة القتال إلى الجبهة الشيوعية التى كان هتلر يرى فيها أكبر خطر على سلام البشرية . وقد ألقى القبض على هيس إثر هبوطه بطائرة خاصة ، فى اسكتلنده ولم يفرج عنه حتى الآن . وكلما زارته زوجته فى أسره يعرضون عليها أن تؤيد ما قيل عن فقدان قواه العقلية . . فترفض أن تلصق به وصمة الجنون فى سبيل ما تراه حقاً طبيعياً له فى استرداد حريته .

والألمانى إلى جانب دأبه على العمل ، يحرص كذلك على الراحة ، والمستوى الطيب فى المعيشة وهو الآن يعمل خمسة أيام فى الأسبوع وينعم بالإجازة يومى السبت والأحد ، من كل أسبوع ، كما يطيب له أن يطلق لنفسه العنان إلى حد لا يخلو من الإسراف الشديد فى بعض الأحيان ليستمتع بكل ما فى الحياة من متع روحية ومادية على السواء .

والألمانى فى لهوه ، وفى جده ، فى بيته وفى مكان عمله ، عاطفى رغم أقنعة

الجمود والعنف ، والرزانة ، التى يضعها على وجهه أو تضعها ظروف حياته كفرد أو كشعب فى تقلبات التاريخ التى عصفت به ، وهزت مادياته ومعنوياته بأعنف ما يتصور العقل . ويخطىء من يذهب إلى الألمـان ، فى بلادهم وفى جيبه كلمات شاعرهم هيلدرلين (وأنا أنقلها هنا عن محاضرة لصديقى الصحفى القـديم هرمان تسيوك الذى كان مستشاراً صحفياً بالسفارة الألمانية بالقاهرة) .

إننى لا أستطيع أن أفـكر فى أى شعب آخر أكثر تمزقاً من الشعب الألمانى فأنت ترى أرباب حرف ، ولـكنك لا ترى بشراً ! وترى قسيسين ولـكنك لا ترى بشراً ! وترى سادة وخدماً ولـكنك لا ترى بشراً ! وترى شباباً وشيوخاً ولـكنك لا ترى بشراً ! !

إنها نزوات الضـيق من العزلة التى عاش فيها هيلدرلين ، منذ قرابة قرنين من الزمان . ومثلها مبالغات الفلاسفة والـكتاب الألمـان الذين ذهبوا فى طلب الـكمال لشعبهم إلى حد الإسراف فى التشاؤم والنقد الذاتى الصارم وما أبعد الفرق بين هذه النظرات القاسية من الألمان إلى أنفسهم ، فى قديم الزمان وحديثه ، وبين ما يراه الأجانب ويلمسونه من صفات الشعب الألمانى العظيم .

إن مدام دى ستايل أديبة فرنسا الخـالدة وصاحبة الحول والطول فى البلاط الفرنسى وفى السياسة الأوروبية والمجتمع الأوروبى فى زمانها ، جعلت فى مقدمة خصائص الألمان : « متعة العمل ودقة التفـكير » وقارنت بين الفرنسى والألمانى مقارنة طريفة فقالت :

إن الفرنسى يعرف كيف يتكلم ولو لم تكن لديه أدنى فـكرة من الأفكار . . بينما الألمـانى على العكس من ذلك : ففى ذهنه دائماً شىء أكثر مما يستطيع التعبير عنه !

وأطرف من هذه المقارنة ، وأجمل وأشمل ، ما قاله الفيلسوف الإسبانى مادرياجا من أن :

الإنجليزى أشبه ما يكون بالجيزيرة . . .

والفرنسى أشبه ما يكون بالبلورة . . .

والإسبانى أشبه ما يكون بالعقد . . .

والإيطالى أشبه ما يكون بالشيش . . .

أما الألمانى فأشبه ما يكون بالنهر . . .

وهذا التشبيه للألمانى بالنهر يرمز إلى طبيعة الحركة والانتقال من حال إلى حال ، أى إن الألمانى لا يقف عند ما هو كائن من أحواله بل يتجه إلى ما سيكون ، بل هو قلق مضطرب ، لا يقنع قط بما وصل إليه بل يمضى سائراً فى طريقه إلى المجهول ، وإلى الجديد ، على حد تعبير هرمان تسيوك . ولعل هذه الحركة الدائمة المتصلة هى المفتاح الذى نستطيع أن نحل به لغز التناقض بين ألمانيا التى نراها فى التاريخ الحديث نابعة بالحركة والعمل والحياة ، وتلك التى يصورها لنا المؤرخ الرومانى تاسيتوس فى عبارته العجيبة التى نقلتها فيما سبق من سطور هذا الفصل من الكتاب .

وإذا لم يكن الألمان — كما قيل — شعباً من الشعراء والفلاسفة (وهو قول يحق لهم أن يتمسكوا به وهم الذين قدموا للانسانية : نيتشه وكانت وليسنج وشيلر وجوته وغيرهم من عمالقة الشعر والفلسفة) . فهم على التحقيق شعب تسرى الموسيقى فى عروقه مسرى الدم . وليس من المصادفة أن تحتل الموسيقى الألمانية مكانتها التى لا تدانى حتى اليوم بفضل العباقرة الخالدين الذين ترجموا الروح الإنسانية فى أرفع صورها . وفى طليعتهم الثالوث الفذ : موتسارت ،

وبتهوفن ، وباخ . وقد قيل عن أولهم إنه يمثل وحى العبقرية الراقصة ، وعن الثانى إنه يمثل الكفاح الشخصى ، وعن الثالث إنه فى موسيقاه يبدو فى إزار العابد فى محراب الله !

فلا غرو إذا رأى الغريب فى ألمانيا فى غير قليل من الدهشة والإعجاب ، أن الألمانى أو الألمانية ، من جميع الطبقات يجعل للموسيقى مكاناً فى حياته اليومية قلما يوجد له نظير عن سائر الشعوب . ولا يناله من هذه الظاهرة ما لاحظه — فى شىء من الأسف — من استسلام عدد لا يستهان به من شباب ألمانيا اليوم ، لتأثير موسيقى الجاز وأنغام الروك والتويست ، فهذه ليست سوى عوارض وفقاقيع لم يكن بد من ظهورها فى ظل الهزيمة والاحتلال جنباً إلى جنب مع البلوجينز ، والكوكا كولا ، واللبان ، وأفلام رعاة البقر والستريبتيز . . و « المغلوب — كما يقول ابن خلدون — مولع بتقليد الغالب » ! وكل تقليد زائل بزوال ظروفه وملابساته ، فلا خطر على أجيال ألمانيا القادمة من احتمال التشبث بالأعراض الزائلة والفقاقيع الوافدة من الخارج سواء أكان ذلك من موسيقاهم أم فى عاداتهم ، أم فى نظرتهم الأصيلة إلى الحياة .

• • •

بقيت كلمة أخيرة لا أحب أن أكتمها فى مجال هذا التسجيل السريع لانطباعاتى عن الشعب الألمانى ، بجماعاته وأفراده من خلال اتصالاتى الوثيقة به ، رغم قصرها .

لقد أحسست إحساساً لا يخالجنى فيه شك ، أن هذا الشعب يجتر كثيراً من الأسى ، فى صمت أحياناً ، وفى همس أحياناً أخرى ، وفى مظاهر من الحركة الجادة

أو الضاحكة فى غير ذلك من الأحيان إن شيئاً ما ، أو على الأصح أشياء متعددة تنغص عليه حياة الرخاء التى يعيشها الآن ويحسده عليها الملايين من سكان أكثر البلاد تقدماً وتطوراً فى مستوى المعيشة . وقد حاولت أن أقف على بعض هذه (الأشياء) فاستطعت أن أستشف منها :

أولا — هذا الوضع الدولى الغريب القائم منذ وضعت الحرب أوزارها حتى الآن . فالألمانى الذى يرى أن الصلح هو النتيجة الطبيعية بعد انتهاء الحرب ، لا يزال يرمى ببصره فى الأفق فلا يرى بصيصاً من الأمل فى إبرام معاهدة الصلح الذى ينتظره عبثاً منذ ثمانية عشر عاماً أو تزيد . وهو يتلفت يمنة ويسرة فيجد من حوله قوات غربية وأخرى شرقية ويجد له عاصمة لا تسمى برلين بل تسمى بون ... ويجد وطنه وعاصمته القديمة أنفسهما ممزقين شطرين أحدهما شرقى يسوده النظام الشيوعى ، والآخر غربى يسوده نظام الحكم الديموقراطى الرأسمالى . . . ثم لا يدرى ، ولا يستطيع — كما قلت — أن يرى على مرمى البصر متى توقع معاهدة الصلح ، ولا متى يتم توحيد الوطن الواحد ، والعاصمة الواحدة ، والأسرة الألمانية الواحدة .

ثانياً — محاكمات نورنبرج لا تزال جرحا مفتوحا فى نفس الشعب الألمانى ، لا لأنه يعطف اليوم على النازية أو يبرر الرعونة الهتلرية التى ساقت ألمانيا — أكثر من أى بلد آخر — إلى خسارة فادحة فى الأموال والأنفس ، بل لأنه يعرف أن محاكمات نورنبرج ، وما قد يجد على غرارها من محاكمات لمن يطلق عليهم (مجرمى الحرب) ليست فى الواقع إلا مطاردات لأشباح من الماضى الذى لا خير يرجى من نبشه ، ولا نتيجة له سوى تحريك الجراح التى لا تزال حية فى قلوب الألمان .

ثالثاً — هذه المعـاملة المهينة التى يراها الألمان متمثلة فيما يفرض عليهم الآن فرضاً من تقديم (الوقود البشرى) دون سواه ، فى إطار الدفاع الغربى المشترك الذى يتولاه حلف الأطلنطى . إن الشباب الألمـانى لا يتحمس كثيراً للانخراط فى سلك الجيوش ذات الأساحة التقليدية وحدها ، لأن حلفـاء الغرب يرفضون أن تكون لدى الجيش الألمـانى أية قوة نووية ، ومعنى هذا أن تتكفل ألمانيا (بالوقود البشرى) ، بينما ينفرد حلفاء الغرب بالسلاح الذرى .

ويتساءل فى هذا الصدد بعض أفراد الشعب الألمانى قائلين : أهذه هى المساهمة الوحيدة التى يطالبها الحلفـاء منا ؟ ! وهل هذه هى المهمة التى يطالبون لأدائها نصف مايون من شبابنا ؛ ثم لا يكفيهم ذلك فيطالبون رفع هذا العدد إلى ثلاثة أرباع المليون . سيتحملون أعظم قدر من التضحية إذا وقع أى هجوم بالأسـلحة التقليدية على غرب أوروبا ؟ !

رابعاً : هناك جانب حساس جداً لدى الألمان لا يحبون أن يتحدثوا عنه وإن كنت تستطيع أن تلتقط خيوطه الرفيعة الدقيقة بين الحين والحين ... وهذا الجانب هو الذى يتعلق برغبة الانتقام المتأججة فى نفوس المتعصبين من اليهود ضد الألمان حتى اليوم ! إن هؤلاء المتعصبين إن يبرئوا أبناء ألمانيا — حتى الذين ولدوا منهم بعد هتلر — من جريمة العداء للسامية ، فهم يعاملون كل ألمانى فى هذه الأيام كما لو كان قد اشترك بنفسه فى ألوان التعذيب والاضطهاد التى نالت ألوفا من اليهود فى عهد الهتـلرية . والألمانى يعجب لأنه إذا تشاتم مع ألمانى آخر حسم الحادث بسلام ، أو تطور إلى معركة بالأيدى ، أو انتقل إلى ساحات المحاكم بتهمة السب والشتم كما يحدث فى أى بلد آخر ، ولـكن القانون الألمانى ينفرد فى هذه الحالة باستثناء لا مثيل له فى أى بلد من بلاد العـالم وهو أن لليهودى

وحده حصانة خاصة ، ومنزلة خاصة ، فوق القانون العادى ، فإذا اجترأ أحد الألمان أو غير الألمان على شتم أحد اليهود فى أراضى ألمانيا الغربية كانت هذه جنحة ، أو لعلها جناية ، تستوجب الحكم بالحبس أو الغرامة الفادحة أو كليهما معاً ! !

ومعنى هذا أن الألمانى الذى لم يكن له بالنازية ، ولا بمبادئها ، ولا بجرائمها ، أية صلة من الصلات ، يجب أن يعترف بحكم القانون بأن لليهودى دون سائر مواطنيه منزلة خاصة فوق كل هؤلاء المواطنين ! ! فلا تكفى التعويضات السخية التى تدفع لإسرائيل بمئات الملايين من الجنيهات ، ولا تكفى التأكيدات المتصلة على ألسنة الرسميين الألمان وغير الرسميين باستنكار الجرائم النازية ضد اليهود ولا تكفى صفوف المجاملات والتصريحات التى تصدر فى كل يوم تكفيراً عن جرائم وقعت من طائفة متعصبة . ذهبت وذهب حكمها وذهب أفرادها إلى عالم الموت أو النسيان منذ تسعة عشر عاماً ، وإنما يجب أن تنكأ جراح الألمان شعباً وأفراداً بأمثال هذه المنغصات والعقوبات التى لا مثيل لها فى أى قانون من القوانين .

هذه جراح عميقة ، تكاد تسمع أنينها وراء ضحكات الألمان المرحة وقهقهتهم العالية ولكنهم قلما يتحدثون عنها ، وقلما يرفعون أصواتهم بالتوجع لها والتفجع لها . ولعلهم بدلا من ذلك « يفشون همهم » ويروون غلهم منها بالمرح وبالعمل وبالأمل .

المسرح التمثيلى الغنائى

ليس فى استطاعة أحد زار ألمانيا كما زرتها ، وطفت بشتى أرجائها : من بون غرباً إلى برلين شرقاً ، ومن هامبورج ولوبيك شمالا إلى ميونيخ جنوباً ، أن يتجاهل الدور الخطير الذى يؤديه المسرح فى حياة الشعب الألمانى ، سواء أكان مسرحاً تمثيلياً أم مسرحاً موسيقياً ، أم مسرحاً غنائياً

أما المسرح التمثيلى فلم يكن لى حظ يذكر من الاتصال به ، لسبب واضح ، هو أن لغته الوحيدة هى الألمانية ، ولا بد لمن يشهد مسرحية ما أن يعرف لغة الحوار التى تدور بها . وذلك على خلاف المسرح الغنائى أو الراقص حيث تعوض الموسيقى ، أو الغناء ، أو كلاهما معاً ، كثيراً مما يضيع على المشاهد الأجنبى من جراء جهله باللغة التى يجرى بها الحوار بين شخصيات المسرحية الغنائية . وأما المسرح الراقص (أى الباليه) فهو بالطبع غنى عن الكلام ، لأن لغته عالمية يفهمها الجميع ، وإن تفاوتت متعتهم بها . وقد زاد من أسفى لعدم استطاعتى مشاهدة المسرحيات الألمانية أن بعض المسارح يختص بروايات سياسية تمزق فيها مختلف الشخصيات العامة والهيئات ، وتتناول شئون الساعة فى السياسة المحلية أو الدولية ، من زوايا لاذعة تجعل لها جمهوراً خاصاً على النحو الذى تعرفه أيضاً بعض مسارح باريس .

والألمان يفاخرون بأن بلادهم أغنى بلاد أوربا بالمسارح . وأن فى كل مدينة ألمانية مسرحاً واحداً أو أكثر . فالمسرح عندهم كرقص الباليه فى روسيا ، وكالألعاب (البهلوانية) فى الصين ، وكالرقص الدينى فى الهند أى أنه الأداة الأولى فى التعبير الفنى عن عبقرية الشعب . ولهذا تسهم الدولة فى نفقات المسارح مساهمة

لا أعرف لها مثيلا فى أى بلد آخر من البلاد الديموقراطية . إذ هى تدفع نحو خمسة عشر مليوناً من الجنيهات المصرية سنوياً لإعانة المسارح وحدها . وتتحمل من أثمان التذاكر نحو ٤٥ قرشاً مصرياً عن كل تذكرة ، بينما يدفع الفرد ما لا يتجاوز نصف هذا المبلغ . أى أن الدولة تتحمل ثلثى النفقات الباهظة التى يتكلفها الاحتفاظ بالفن المسرحى فى مستواه الرفيع الذى يفاخرون به عن جدارة واستحقاق . ومما ينبغى أن يلاحظ هنا أن العدد الأكبر من تذاكر المسرح يباع بطريقة الاشتراك الموسمى ، ولهذا يشتد التزاحم على بقية المقاعد بحيث يضطر الإنسان للانتظار فى طابور طويل لعله يحصل على تذكرة فى اللحظة الأخيرة يتخلف صاحبها أو يردها لعذر طارىء . وقد مررت مع الزميل الإذاعى التلفزيونى الأستاذ طاهر أبو زيد أمام شباك التذاكر فى قاعة الاحتفالات بمتحف ميونيخ ليلة رأس السنة ، نترقب فيما يشبه اليأس رجاء مرافقنا الرسمى للمسئولين بالمسرح أن يمنحونا أسبقية الحصول على تذاكر الاستماع إلى حفلة موسيقية تقدمها فرقة ميونيخ الفيلهارمونية ، وهى من أشهر الفرق الموسيقية فى العالم . وكم شعرنا بالسعادة تغمرنا إذ استجاب المسئولون إلى رجاء دليلنا ، فأتيح لنا أن نستمع من هذه الفرقة إلى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن ، وهى التى تغنى المجموعة فى ختامها قصيدة فردريك شيلر الخالدة عن « بهجة الحياة » ، تلك البهجة التى تغنى بها ، ودعا إليها شاعر الحرية الألمانى الفذّ الذى عاصر بيتهوفن ، واضطهد خمسة عشر عاماً لمهاجمة الطغيان والطغاة فى روايته (اللصوص) ، ثم تقاضاه السل آخر نفس من حياته ، وهو بعد فى السادسة والأربعين من عمره .

* * *

وللموسيقى والأوبرا والأوبريت ، نصيب الأسد من اهتمام الحكومة ورواد

المسرح على السواء فى ألمانيا . ويؤخذ من إحصاء لما عرض فى أحد المواسم التمثيلية بألمانيا أن مسارح الجمهورية الاتحادية قدمت ١٨٥ أوبرا و ٩٠ أوبريت و ٥٦٩ تمثيلية و ٤٤ مسرحية موسيقية فكاهية . كما يؤخذ من إحصاء آخر أن عدد أعضاء المغنين والمغنيات المقيدين فى الاتحادات الغنائية يبلغ ٧٥٠ ألفاً ، أى ثلاثة أرباع المليون ، يعملون ويعيشون ، شأنهم شأن الموسيقيين والممثلين هنالك ، عيشة مستقرة آمنة ، تتيح لهم التفرغ لفنهم دون أن تؤرقهم تقلبات الزمان فى سبيل لقمة العيش .

وإذا كان قد فاتنى الاستمتاع بروائع التمثيليات على المسرح الألمانى ، فقد أسعدنى الحظ من ناحية أخرى إذ أتاح لى أن أشهد على مسارح هامبورج وميونيخ وبرلين بعض الروائع الغنائية والموسيقية والراقصة التى تقطع بما بلغه المسرح الألمانى من تفوق قلما يوجد له نظير . ومن هذه الروائع أوبرا « الفارس ذى الوردة » . وقد شاهدتها فى عاصمة بافاريا ، حيث رأت النور لأول مرة فى أول فبراير سنة ١٩١١ (بعد خمسة أيام من أول عرض عالمى لها بمدينة درسدن) . وهى أوبرا ألمانية محض ألفت بالألمانية ، وصاغ موسيقاها الساحرة أحد عباقرة ألمانيا الخالدين ريتشارد شتراوس . ولم أكد أنتهى من الاستماع ، أعنى الاستمتاع ، بهذه الدرة الرائعة ، حتى وجدتنى أتساءل : كيف يمكن أن يرقى أى فن مسرحى أو غنائى أو موسيقى إلى مرتبة تفوق ما شاهدناه وسمعناه فى هذه الأوبرا الألمانية لحماً ودماً ، وتاريخاً وموسيقى ، ولغة وتمثيلا ؟!.

وعلى مسرح دار الأوبرا الجديدة فى برلين الغربية ، أتيح لى أيضاً مشاهدة تحفة أخرى من روائع المسرح الغنائى الألمانى ، وهى أوبرا (العروس المباعة) . وهى من أجمل ما يمكن أن تراه العين ، وتأنس إليه الأذن ، وتستمتع به النفس ،

ولا سيما أن حوادثها تجرى فى بقعة من أجمل بقاع العالم وأغناها بالمرح والحيوية والتقاليد والأغانى الفولكلورية ، وهى منطقة بافاريا الألمانية . وقد وضع ألحانها الموسيقى التشيكى سميتانا ، ويقوم بالدور الأول فيها ، وهو دور (الخاطب) الذى يقابله فى بعض بلادنا الشرقية (الخاطبة) التى تحاول أن تتوسط لعقد الزيجات لقاء أجر معلوم ، قام بهذا الدور مغن نمسوى ملأ المسرح وسيطر على النظارة بقامته المديدة ، وروحه المرحة ، وصوته العميق الأخاذ ، وحركته الخفيفة ، وتمثيله الطبيعى من أول فصل فى الأوبرا إلى آخر منظر فيها . ومع ذلك فإن واجب الصراحة يقتضينى أن أقول كلمة عن الدار لا عن الأوبرا .

إن دار أوبرا برلين القديمة ذات الطراز (الكلاسيكى) المألوف فى دنيا الأوبرا العريقة ، تقع فى منطقة برلين الشرقية ، أى فى الشطر الشيوعى من برلين والدار التى رأيت فيها أوبرا « العروس المباعة » هى الدار الجديدة التى يسمونها « أويتش أوبرا » وقد تم افتتاحها فى مهرجان دولى مشهود أقيم فى ٢٤ سبتمبر سنة ١٩٦١ ، وحضره رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية و ١٩٠٠ مدعو من جميع أطراف العالم . ولم يكن أهم ما حدث فى هذا الاحتفال هو اختيار أوبرا «عايدة» ودعوة المغنية الأمريكية الزنجية جلوريا ديفز لأداء دور البطولة فى هذه الأوبرا المصرية ، وإنما كان بناء دار الأوبرا نفسه ، والطراز الذى اختاره له المهندس البروفسور أولمان ، حديث المدعويين ليلة الافتتاح ، وما زال حديث كل زوار هذه الدار الذين ينقسمون فى شأنها قسمين : أحدهما يرى فى بساطتها المطلقة ، وخلوها من كل النقوش والزخارف والألوان ، جرأة محمودة من المهندس العبقرى الذى يرى ، ولا يزال يصمم على رأيه ، أنه يجب ألا يكون فى بناء دار الأوبرا ومقاعدها شىء يصرف انتباه المتفرجين عن الهدف الوحيد الذى جاءوا ، أو يجب أن يأتوا من أجله ، وهو المسرح ، وما يجرى على المسرح من تمثيل وغناء ، هذه

وجهة نظر المهندس والذين يؤيدونه ، أما الفريق الآخر ، وأسارع فأضع نفسي بين صفوفه ، فيرى أن للأوبرا جواً فنياً وتاريخياً يجب أن يبرزا في كل شيء : في مدخلها ، وفي جدرانها ، وفي مقاعدها ... ولا داعي مطلقاً لإدخال الكآبة و (الغم) سلفاً على جمهور النظارة بإدخالهم قاعة معتمة الجدران ، شاهقة السقف خالية إلا من لون رمادي مخطط بالأسود ، يمتد من السقف إلى الأرض ، ويكسو كل شيء في القاعة الضخمة الكآبة حتى يرفع الستار ... فيتنفس الجميع الصعداء !

إن برلين الغربية مدينة — أو نصف مدينة جميلة أنيقة — نابضة بالروح والحياة ، ولكنها استطاعت أن تجعلني أستشعر الكآبة فيها مرتين : مرة عند ما طفت حول الحائط الخانق الرهيب ، بما فيه من واجهات المنازل التي أخليت من سكانها ، والنوافذ التي سدت بالطوب وأسياخ الحديد كأنما أريد لها أن تمنع حتى الهواء من المرور ليستنشقه أبناء شطري المدينة الذي جمع بينهم الدم والوطن ، وفرقتهم السياسة ! أما المرة الثانية التي أحسست فيها بنوع آخر من الانقباض والكآبة في المدينة التي استردت الكثير مما عرفت به من بهجة وحيوية ، فهي المرة التي ذهبت فيها متهللا منشرح الصدر لأرى (الدويتش أوبرا) وأشهد على مسرحها الأوبرا المرحة الرائعة (العروس المباعة) فإذا منظر الاوبرا من الخارج والداخل يهيء النفس لأي شيء سوى الغناء ، والمرح والموسيقى !!

إن الفريقين لا يزالان يتجادلان بعنف حول الفكرة العبقرية التي خطرت للمهندس البروفسور أولمان الذي صمم أوبرا برلين ، ولكني أشعر بأن من واجبي أن أنبه المواطنين في القاهرة إلى أن هذا الجدل لا يهم الألمان وحدهم ، بل يهمهم هم أيضاً ... فالمهندس الكبير الذي أثار بأسلوبه الهندسي كل هذا الجدل ، هو

بعينه المهندس الذى اختير تصميمه لبناء أوبرا القاهرة الجديدة ... وإنى لأدعو الله ألا يطبق نظريته الخطيرة فى دور الأوبرا على هذه الأوبرا المصرية الجديدة حتى لا يفاجأ رواد الأوبرا الجميلة القديمة الحالية بهذا (الشىء) المقبض الكئيب الذى رأيته فى مبنى (الدويتش أوبرا) فى برلين !

* * *

على أن هناك مبنى مسرحياً من طراز آخر أتمنى أن أرى مثله فى القاهرة ، ولو اقتضى الأمر أن ينقل كما يقولون (نقل مسطرة) ! وهو مبنى مسرح (الهانزا) فى مدينة هامبورج . إنهم يقدمون استعراضات خفيفة ، وألعاباً (بهلوانية) ، ومقطوعات فكاهية مرحة ، على أنغام فرقة موسيقية خصصت لها مقصورة فسيحة إلى يسار المسرح . أما المقاعد و (الألواج) فقد أعدت كما لو كانت قاعة المسرح قاعة لمجلس نواب أو قاعة مؤتمرات ، مع فارق واحد ، هو أن المكان الذى يخصص للأوراق أمام كل مقعد قد خصص فى هذا المسرح لتناول الطعام والشراب والجميع جلوس فى أماكنهم ، يأتيهم طعامهم وشرابهم فى (صوانى) بيضاوية الشكل ، حتى لا تشغل مساحة بعيدة بين المقاعد ، وقد وضع صف من (الأباجورات) أو المصابيح ذات الأغطية الشفافة ، على طول المقاعد ، وبجانبها لوحة بها أزرار كهربائية لمناداة الساقى ، أى الجرسون ، بواسطة النور لا بأصوات الأجراس أو نداءات الجالسين . إن هذا الطراز من المسارح لا يوجد إلا فى مدينة هامبورج التى كانت تنافسها فيه برلين حتى هدمت الحرب مسرحاً مماثلا هناك لم يعيدوا بناءه حتى الآن . ولعل القاهرة وغيرها من عواصم الشرق تقتبس طراز هذا المسرح الفريد .

خواطر ومناسبات أدبية

لم تكن الدراسات الأدبية هدفاً مرسوماً من أهداف الأشهر الثلاثة التي قضيتها متجولاً في ألمانيا الغربية من أقصى شمالها في مدينة لوبيك ، حيث ولد الأديب العالمي العظيم توماس مان إلى أقصى الجنوب حيث تقوم مدينة ميونيخ « واسمها مشتق من كلمة « مونخ » أو « مونش » أي « راهب » لأنها قامت حول دير كان يعيش فيه بعض الرهبان ولكن الحقيقة التي لمستها في هذه الجولة هي أن الألمان ليسوا مشغولين بالانتعاش الاقتصادي وحده ، ولا بالمسائل السياسية وحدها ، وإنما هم في الوقت نفسه معنيون بالأدب والفن ... حريصون على الاحتفال بالمناسبات الأدبية والفنية .

كان أول ما صادفني في أعقاب وصولي هذا الاهتمام البالغ الذي رأيته بإحياء الذكرى المئوية لمولد أديب ألمانيا وشاعرها وكاتبها المسرحي العالمي جرهارت هاوبتمان الذي توفي سنة ١٩٤٦ . ولم يكن هذا الاهتمام مقصوراً على ألمانيا بل شمل بلاداً أوربية عديدة منها إيطاليا وانجلترا وسويسرا . ففي ألمانيا أقيم بمدينة كولونيا أسبوع هاوبتمان « من ١٥ الى ٢١ نوفمبر » ، برعاية الدكتور لوبكه رئيس جمهورية ألمانيا الاتحادية . وعرض في المدينة ما لا يقل عن سبع من مسرحياته خلال ذلك الأسبوع ، وألقى البروفسور فيرنر تسيجنفوس البحاثة الناقد البرليني الكبير محاضرة عن « التفكير الاشتراكي في مسرحية هاوبتمان » ، وأقام متحف شيلر القومي معرضاً تذكارياً في كولونيا أيضاً امتد إلى ١٦ ديسمبر . أما في انجلترا فقد أقام معهد اللغات والآداب الجرمانية بجامعة لندن معرضاً تذكارياً آخر . وكتبت جريدة التايمز مقالا خاصاً بمناسبة هذه الذكرى وصفت فيه

هاوبتمان بأنه آخر كاتب ألمانى تمثل مؤلفاته ألمانيا كلها . وأشارت إليه قائلة إن هذا المؤلف المسرحى العظيم يعد « حلقة اتصال بين ستهريندبيرج وإبسن من ناحية . وأونيل وتنيسى وليامز من الناحية الأخرى » . وفى سويسرا نشرت صحيفة « نويه تسورشر تسايتونج » ملحقاً خاصاً تناول فيه عدد من كبار النقاد والباحثين شخصية هاوبتمان ومؤلفاته ومكانته الأدبية بالبحث والتحليل الدقيق .

* * *

وقد ولد جرهارت هاوبتمان سنة ١٨٦٢ ، ولم يكن فى أيام دراسته تلميذاً ناجحاً ، إذ كان يستغرق فى أحلام اليقظة ، ويسرح بذهنه فى معظم الأحيان بعيداً عن قاعة الدرس . ويؤثر أن يدون قصائد قصيرة أو قصصاً خرافية فى كراساته . وقد ظل حتى شيخوخته على هذا الحال واعترف بأن الأحلام كانت مصدراً هاماً من مصادر وحيه وإلهامه . ومع ذلك فإن إقبال هاوبتمان على تعليم نفسه ، وإدمانه قراءة مؤلفات الفلاسفة العمالقة ولاسيا أفلاطون وبوذا ، وتوسعه فى دراسة روائع الأدب الهندى القديم كاليوبانيشاد والفيدا ، والفيدانتا ، واتجاهه عقب زيارته لليونان سنة ١٩٠٧ لالتهام الأدب الاغريقى بما فيه من الأساطير الحالمة والقصص الرمزية ، كل هذا جعل آفاقه الفكرية والروحية تتسع وتمتد إلى المستوى العالى الذى كفل له المكانة الرفيعة التى يشغلها الآن . ولا سيا أنه قد اجتمع له إلى جانب نزعته الأسطورية الحالمة ، مقدرة فذة على تصوير الواقع أو تقليده على النحو الذى جعل كثيرين من النقاد يضعونه خطأ فى طليعة (الطبيعيين) بالمعنى الضيق من هذا التعبير . ولكن (الطبيعية) فى الواقع كانت مظهراً واحداً من مظاهر موهبته الشعرية والمسرحية المبدعة المتنوعة . فلئن كان مؤلف (النساجين) وهى أشهر مسرحياته ، و (قبل الشروق) و (بعد الغروب) ، فإنه كذلك مؤلف المسرحية الهزلية المشهورة (معطف

السنجاب) ، والمسرحيات الأسطورية الجميلة مثل (جريزيلندا) و (الناقوس الغريق) ، كما أنه مؤلف القصائد الثلاثية الرائعة التى جمعها فى (الحلم الكبير) وغيرها من ثمار قريحته الخلاقة المتنوعة الثمار ، المحلقة بين الواقع والخيال ، ودنيا الحقائق والأحلام والأوهام . وقد منح هاوبتمان جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩١٢ تقديراً (من الناحية الأساسية لنشاطه الغزير . المنوع . البارز فى ميدان الدراما) .

* * *

ولم يكن الاحتفال بالعيد المئوى لميلاد هاوبتمان هو الحدث الأدبى الوحيد الذى صادف زائر ألمانيا فى الأسابيع الأخيرة . فالمناسبات والاحتفالات هناك لا تكاد تنقطع على مدى الأيام . ومن ذلك ما عملته أثناء زيارتى للبيت المتواضع الذى ولد فيه فريدريش فون شيلر ، شاعر الحرية والحياة فى ولاية بادن فورتمبرج من أن الجائزة التى توزعها حكومة تلك الولاية كل ثلاث سنوات تشجيعاً للأعمال البارزة فى دنيا الأدب أو الفن الرفيع . قد منحت أخيراً لواحد من أدباء ألمانيا الحديثة المعدودين . وهو فيرنر بيرجنجروين Werner Bergengruen الذى احتفل أخيراً هو أيضاً بعيد ميلاده السبعين ! وتبلغ قيمة الجائزة خمسة عشر ألف مارك ألمانى . وقد أقيم الاحتفال بتسليمها للأديب الفائز فى مسرح الدولة بمدينة شوتجارت الجميلة . وذكر فى الحفل أن جائزة شيلر تمنح إلى بيرجنجروين تقديراً لإنتاجه المنوع فى آفاق فسيحة من الأدب ، ولا سيما الرواية القصيرة والطويلة والشعر . وكان آخر ما ظهر من مؤلفاته ، أى فى سن السبعين رواية اسمها « الإكليل الثالث » Der Drilte Kranz . وكذلك منحت جائزتان

اخريان قيمة كل منهما ٧٫٥٠٠ مارك ألمانى لأديبين من مؤلفى المسرح الشبان . أحدهما سنه ٣٦ سنة وهو ديتر فالدمان Valdman تقديراً له عن مسرحية هزلية اسمها « أتلانتس » . والآخر سنه أربعون سنة وهو هاينز كيبهارت Kipphardt عن مسرحية اسمها « كلب الجنرالات » Der Hund des Generals .

* * *

ومن المعالم الأدبية التى استوقفت نظرى وأثارت تأملات كثيرة فى نفسى خلال الزيارة أيضاً ، ذلك البيت العريق الطراز ذو الطوابق الثلاثة « بودنبروكس هاوس » فى مدينة لوبيك السياحية الساحرة فى أقصى الشمال ، على البحر البلطى. إنه البيت الذى ولد فيه أعظم أدباء ألمانيا فى هذا العصر توماس مان ، ولأستاذنا عباس محمود العقاد فيه دراسات جديرة بأن يعود إليها الأدباء كلما استغلق عليهم شىء من مؤلفاته التى تحير المثقفين الألمان أنفسهم فى بعض مواضعها . وقد خلد توماس مان هذه الدار برواياته Buddenbrooks أى « آل بودنبروك » التى نال عليها أساساً جائزة نوبل فى الأدب سنة ١٩٢٩ ، وكان قد بدأ يكتبها وهو بعد فى الثالثة والعشرين من عمره أى سنة ١٨٩٨ ، وفرغ منها فى روما فى العام التالى ، ونشرت فى عيد الميلاد سنة ١٩٠٠ . وفيها يروى قصة أسرة هانزية عريقة جرفها ، وجرف معها تقاليدها وأوضاعها ، تطور العصر لأنها لم تستطع مسايرة موكب الزمن ، فتخلفت بتقاليدها وتفكيرها عن هذا الموكب الذى يكتسح فى طريقه جمود التقاليد مهما بلغت من رسوخ وعراقة فى نفوس أصحابها . وقد أطلق توماس مان على بطل قصته اسم (القنصل بودنبروك) وهو يرمز به إلى شخصية أبيه . وقال إن زوجة بودنبروك جاءت من الجنوب ، إشارة إلى

أمه هو نفسه التى كانت برازيلية تجرى فى عروقها الدماء الحارة ، على خلاف والده الذى كان تاجراً وحاكما من حكام مدينة لوبيك بأقصى الشمال ، حيث ولد توماس مان وإن كان الأديب الكبير قد عاش معظم حياته فى ميونيخ ، حتى كان الحدث الفاصل فى تاريخ حياته إذ غادر ألمانيا ساخطاً على الحكم النازى سنة ١٩٣٣ ، وألقى عقب ذلك خطاباً فى احتفال أقيم فى بروكسل بمناسبة الذكرى الخمسينية لوفاة فاجنر ، تضمن تعريضاً مكشوفاً بهتلر ، الذى كان شديد الإعجاب بفاجنر ، فلم يسمح لتوماس مان بالعودة قط إلى وطنه ، رغم أن أخاه الأصغر هينريخ مان كان ضابطاً بالجيش الألمانى ، وبعد خمس سنوات من انتهاء الحرب الأوربية عاد توماس مان إلى ألمانيا ، للمرة الأولى بعد نفيه ، وما زال يواصل تنقله بين أوربا والولايات المتحدة الأمريكية . حيث كان قد عين أستاذاً للأدب بجامعة هارفارد حتى توفى منذ نحو تسع سنوات ، تاركا وراءه تراثاً ضخماً من الأدب الألمانى والعالمى الرفيع تقف على قمته روايته التى أشرت إليها عن آل بودنبروك . وروايته المشهورة الأخرى (جبل السحر) . وفى معظم هذه الروايات يستطيع القارىء أن يجد خيطاً رفيعاً من وراء عقدتها وسير حوادثها يمثل الصراع الذى كان يدور فى أعماق توماس مان ، بين طبيعة رجل الشمال الواقعى الجامد العملى الذى يتقبل الحياة كما هى — رمزاً إلى طبيعة أبيه وأسرة أبيه — وبين طبيعة الجنوبى العاطفى الحار الدم الذى يأبى إلا أن يفكر وأن يغير ولكنه كثيراً ما يتعثر ، ويتدهور ويتحلل نتيجة عاطفيته — وهى إشارة إلى الدماء الحارة التى كانت تجرى فى عروق أمه البرازيلية وقد كان توماس مان يرى نفسه وسطاً بين الإثنين ، ومن هنا كانت تتمثل حيرته الكامنة بين الطبيعتين فى عدد كبير من قصصه ورواياته .

* * *

ويروى توماس مان فى روايته (جبل السحر) ، قصة بسيطة جداً . هى قصة شاب يدعى (كاستورب) من مدينة هانزية ، هى مدينة هامبورج ، يأخذ طريقه إلى إحدى المصحات فى جبال سويسرا ، ليزور قريباً له كان مريضاً بذات الصدر . وفى جو هذه المصحة الذى يختلط فيه المرض بالصحة ، والأمل باليأس والعقل بالجنون ، يقع الفتى فريسة التأثر العميق بعالم المرضى فتصيبه العدوى ، وتشتد عليه وطأة الحمى ، فتمتد الزيارة سنوات عدة بدلا من أسابيع قليلة . وهنا يبدو الخط المسك بالرواية من أولها إلى آخرها ، وهو أن المرض — كما يعتقد توماس مان — ليس فى حقيقته شيئاً عضوياً ، بل هو أثر عقلى . وأن الإنسان بالإرادة القوية يستطيع أن يحول دون وقوعه فريسة سهلة للمرض ، فالإرادة القوية قادرة على أن تحصن صاحبها ضد العدوى وضد المرض ! ويخصص توماس مان معظم صفحات الرواية لمناقشات ومحاورات فلسفية عميقة . ومن ذلك أنه يكتب نحو عشرين صفحة فى الحديث عن (الزمن) وكيف أنه شىء لا يجوز ولا يمكن أن يقاس كما يقاس أى شىء آخر من الأشياء .

وفى مكان آخر من رواية (جبل السحر) يثير توماس مان جدلا فلسفياً طويلا بين شخصين أحدهما قسيس كاثوليكى ، ولد يهودياً ثم اعتنق المسيحية على يد الجيزويت لاعتقاده أنهم أذكى الناس ، وأنه يستطيع على أيديهم أن يبلغ مستوى عالياً من الثقافة . أما الطرف الآخر فى هذا الجدل فهو إيطالى متحرر ، مادى ، يدين بالتطور الطبيعى ، ولكن فى أعماقه نفحة إنسانية تجعله عاجزاً عن قتل ذبابة . ومع ذلك فإن الجدل بين الرجلين لا يلبث أن يتخذ طابعاً من الحدة يحوله إلى مبارزة بالمسدسات يتعمد فيها القسيس (واسمه نافتا) أن يقتل نفسه ! وهى نهاية ترمز إلى مصير كل جدل يقوم على التعصب والعناد .

وفى الرواية حديث طويل آخر يدور على لسان شاب هولندى فى المصحة اسمه (بيبر كورن) ، تتجسم فيه قوة الشخصية وسحرها . ويخرج القارىء من هذا الحديث بأن (الشخصية) ليست شيئاً يحتاج إلى مقومات معينة محددة . بل هى شىء (ذاتى) يوجد عند المرء أو لا يوجد . فهى لا تحتاج إلى ثقافة ، ولا تحتاج إلى ذكاء . ولا تحتاج حتى إلى فكرة جديدة . أو حتى إلى أية فكرة على الإطلاق . فهناك إنسان له (شخصية) وذاك إنسان ليست له (شخصية) وكفى !

إن الشاب الهولندى يدخل مطعم المصحة فجأة فى وقت الغداء ، فإذا أنظار الجميع تتجه إليه . ويبدأ الحديث إلى الجالسين إلى المائدة فينصرفون عن طعامهم ليكونوا كلهم آذاناً صاغية إلى حديثه . ومع ذلك فإن الكلام الطويل ، الرنان الذى يقوله الفتى الهولندى المستأثر بكل هذا الاهتمام لا ينطوى على جملة واحدة ذات معنى على الإطلاق !! ويصف توماس مان فى أسلوبه الرائع كيف استولى « بيبر كورن » على ألباب سامعيه بطريقته فى الإلقاء ، وكيف كان يحرك يديه ويستخدمهما فى حديثه ، بل يستخدم حركات أنفه نفسها . . . لكى يلقى فى روع السامعين أنه يقول شيئاً ذا بال ، بينما هو لا يقول فى الواقع شيئاً ذا معنى مفهوم . . . ويلتفت إلى شاب صينى يجلس إلى جواره ويمعن فى هذا الحديث (الساحر) . الذى لا يفهم منه الصينى ولا الآخرون شيئاً ما ، بينما ينعى الشاب الصينى حظه السيىء الذى حرمه من الاستمتاع بالمعانى الجميلة ، البليغة ، فى أعظم حديث سمعه فى حياته ، من أعظم شخصية جذبته بسحرها الذى يشده إليها ، ويجعل الجميع ينصتون مأخوذين صامتين ، كأن على رءوسهم الطير !!

وهكذا يتاح للمهندس الشاب الذى جاء زائراً وأقام مريضاً بضع سنوات

فوق الجبل السحرى ، أن يرى قطاعات مختلفة من البشر . ويدخل فى مناقشات وتأملات تحوله من إنسان عادى بسيط إلى مفكر يحلق فى أعلى ذرى الفلسفة ، ويرمى ببصره إلى آفاق بعيدة فى عالم البشر ، إننا هنا ، على جبل السحر ، نرى فى الشخصيات المختلفة المقيمة فى المصحة ، لمحات قوية من شتى فلسفات الشرق والغرب ، تتصارع وتتجادل بألسنة هذه الشخصيات .

اللغة العربية والقرآن
في حياة المستشرقين الألمان

لم يخطر لى قط ، حين اقترح علىَّ بعض الأصدقاء العرب والألمان فى مستهل زيارتى لألمانيا أن ألتقى بعدد من المستشرقين هناك ، أن هذه الفكرة العارضة ستفتح أمامى أفقاً واسعاً من الاطلاع على جهود جبارة ، رغم تواضع أصحابها الخليق بالعلماء ، وهى جهود لا أحسب أن كثيرين من العرب أنفسهم يفطنون إلى ضخامتها ، وإلى قيمتها العظمى فى خدمة اللغة العربية من أقدم عصورها حتى اليوم .

وقد كان أول لقاء لى فى هذا المجال مع أستاذة جليلة تحتل مكاناً مرموقاً فى طليعة المستشرقين المعاصرين ، وهى البروفسور — أو البروفسورة إذا شئتم — آن مارى شيمل Schimmel ، المتخصصة فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية والديانات المقارنة . وهى تحمل شهادة الدكتوراه فى الفلسفة والدين والعلوم من جامعة برلين . وأعترف بأننى حين ذهبت للقائها كانت ترتسم لها فى ذهنى صورة سيدة عجوز ، منطوية على كتبها ودراساتها ، زاهدة فى لقاء الناس وإضاعة وقتها فى استقبال الزوار ، ولكن هذه الصورة القاتمة لم تلبث أن اختفت من اللحظة الأولى لزيارتها فى مكتبتها الزاخرة العامرة بروائع المؤلفات عن الأدب العربى والفارسى والباكستانى شعراً ونثراً . لقد وجدت فيها تواضع العلماء بالفعل سواء فى صوتها الوديع الخفيض ، أو فى حركاتها الهادئة الرزينة ، أو فى تقديم مؤلفاتها إلىّ واحداً بعد واحد ، وبينها دواوين من الشعر الفارسى مترجمة إلى

التركية شعراً ... وبينها (سيرة ابن خفيف) التى قامت بنشرها سنة ١٩٥٦ . وبينها كتاب عن محمد إقبال وشعره ، وبينها كتب بالألمانية عن « الشعر الغنائى عند الشرق » (سنة ١٩٥٢) و « تاريخ الأديان فى العالم » (سنة ١٩٥١) . وغير ذلك من المراجع القيمة باللغة العربية والألمانية والتركية والفارسية والأوردو والسيندى (وقد اكتشفت فى اللغة الأخيرة خمساً وعشرين ترجمة للقرآن الكريم) ! ومع ذلك فهى لم تتم حتى اليوم عامها الحادى والأربعين . ولعل هذا هو السبب الذى جعلنى أنظر طوال الوقت إلى وجهها الوسيم وأتخيل من حوله قبعته الزاهية البيضاء ... وقد أضفى عليها الإيمان بالعلم والتفانى فى خدمته هالة لا تقل روعة ولا قداسة عن إيمان الرهبان بالدين .

وفى سمت العلماء المتواضعين الأجلاء رأيت كذلك مستشرقاً عظيماً آخر خلال زيارتى هو البروفسور رودى باريت Parett ، وهو يشغل الآن كرسى الأستاذية فى جامعة توبنجن حيث تلقى العلم وحصل على شهادة الدكتوراه فى الفلسفة ثم عين معيداً بها بين سنتى ١٩٢٦ و ١٩٣٠ ثم انتقل إلى جامعة هايدلبرج إلى سنة ١٩٣٩ ، ثم عين أستاذاً بجامعة بون ، ومنها عاد إلى توبنجن إذ عين أستاذاً بها للدراسات الإسلامية والسامية منذ سنة ١٩٥١ حتى الآن . وقد صدرت له عدة مؤلفات كان آخرها كتاب عن « محمد والقرآن » ، وهو يعد الآن ترجمة للقرآن الكريم بالألمانية مصحوبة بتفسير وجيز . إن البروفسور باريت فى الثانية والستين من عمره الآن ، ولكنه كان يحدثنى عندما لقيته فى جناح الدراسات الإسلامية والسامية بجامعة توبنجن وكأنه على موعد مع ستين عاماً أخرى فى خدمة الشرق واللغة العربية والإسلام .

وفى كولونيا قابلت مستشرقاً آخر من أنشط المشتغلين بالدراسات الإسلامية

والعربية وهو الدكتور إرنست كلينجمولر الأستاذ الفخرى بجامعة كولونيا ومدير المعهد العالى للتأمين . ومن طريف ما يذكر عنه أنه حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة برلين سنة ١٩٣٧ ، وكان موضوع رسالته تاريخ حزب الوفد ودوره فى السياسة المصرية . ثم نال شهادة الأستاذية برسالة عن « مكماهون والعرب » . وفيها تحليل دقيق عن الرسائل المتبادلة بين مكماهون وبعض الزعماء العرب حول حدود فلسطين ، والدكتور « كلينجمولر » يجيد العربية الفصحى ، ولهجاتها الدارجة ، كما درس السوريانية ولغة السواحيلى والهاوسا . وقد تلقى دراسته فى اللغة العربية على يد رجل من أعظم المستشرقين الألمان وهو البروفسور هارتمان الذى جاوز الثمانين الآن ، وما زال يحرر مجلة أدبية مشهورة مختصة بشئون الشرق الأوسط وهى مجلة O.L.Z. . ومن مؤلفات البروفسور كلينجمولر كتاب عن « العلاقة بين التأمين والفقه الإسلامى » كما أنه كتب بحثاً عن « فكرة الشرعية فى الإسلام » وقدمه إلى مؤتمر النظم القانونية المقارنة الذى عقد فى هامبورج سنة ١٩٦٢ .

وعلى ذكر هامبورج أحب أن أنبه القراء إلى ما سمعته من أحد كبار الألمان الذين يدرسون العربية — وهو الدكتور جونتر فايس — إذ لفت نظرى إلى أن كلمة (بورج) هذه ، إنما هى فى الواقع كلمة (برج) العربية ، بمعناها عند العرب الذين استقروا فى أسبانيا نحو ثمانية قرون وامتدت آثار علومهم وثقافتهم إلى شتى أنحاء أوربا .

وأعود إلى موضوع المستشرقين فى ألمانيا فأذكر ما حققه الدكتور ألبرت ديتريش ، أستاذ الدراسات الإسلامية فى جامعة جوتنجن ، من أن أول عالم ألمانى نهض بأول محاولة فى ألمانيا لتدريس اللغة العربية ونشرها ، يدعى كريستمان وقد توفى منذ ثلاثة قرون ونصف قرن ، أى سنة ١٦١٣ ، بعد أن وضع فهرساً

مختصراً لمجموعة من المخطوطات كان يقتنيها أحد النبلاء الألمان ، وألف كتيباً لتعليم الناس كتابة الحروف العربية ، كما جمع بعض آيات من الإنجيل مترجمة إلى اللغة العربية للتمرن على القراءة . ومن الطريف — على حد تعبير الدكتور ديتريش — أن كريستمان أعد بنفسه للمطبعة جميع الحروف العربية فى قوالب خشبية . وفى عام ١٥٨٥ عين أستاذاً بجامعة هايدلبرج ، واقترح إنشاء كرسى للدراسات العربية الخاصة بالفلسفة والطب من مصادرها العربية ، كما أشار إلى أن مطابع روما تملك حروفاً عربية ، وبهذا يمكن القيام بنشر بعض المخطوطات العربية ووضع قاموس للغة العربية وكتاب فى النحو تمهيداً لنشر الدراسات العربية فى ألمانيا . ولكن شيئاً من هذا لم يتم مع الأسف إذ توفى ذلك العالم الجليل بعد فترة قصيرة من تعيينه أستاذاً للدراسات العربية . وحبذا لو عمل المجمع اللغوى بالقاهرة على إقامة احتفال فى هذا العام لإحياء ذكرى الدكتور كريستمان ، وتحليل أعماله وآثاره باعتباره كما قلنا أول عالم ألمانى قام بجهود لا تنسى فى سبيل نشر اللغة العربية والثقافة العربية فى ألمانيا .

على أن أول مستشرق ألمانى وقف حياته منذ نشأته حتى مماته ، على دراسة اللغة العربية والحضارة الإسلامية ، هو العلامة رايسكه (الذى توفى سنة ١٧٧٤) وقد نشأ فى بيت فقير ، وكان والده يشتغل بدباغة الجلود ، ولكنه -- أعنى الإبن — كان يحس منذ نعومة أظفاره بميل شديد لدراسة اللغة العربية فما زال يروى ظمأه إليها حتى أتقنها ، واستطاع فى سن مبكرة أن يقرأ كتاب « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » لابن عربشاه ، ثم نشر المقامة السادسة والعشرين من مقامات الحريرى ، مع ترجمة لاتينية لها ، وسافر بعد ذلك إلى ليدن فى هولنده للاطلاع على المكنون من ذخائر اللغة العربية بها ، وأكب على دراسة الشعر الجاهلى والمعلقات .

ولا سيما معلقة طرفة بن العبد وشرحها لابن النحاس . ووضع منهجاً خاصاً لدراسة الشعر العربى ، أصبح موضع اهتمام الأجيال التالية . وكان رايسكه معنياً إلى جانب ذلك بدراسة التاريخ الإسلامى ، فألف فيه بحثاً عاماً نوه فيه بأهميته كجزء لا يتجزأ من التاريخ العالمى ، ونعى على الأوربيين عدم إعطائه حقه من العناية أسوة بالتاريخ اليونانى والتاريخ الرومانى ، ونشر ترجمة لاتينية لجزء من أبى الفداء ، ومقتطفات من كتاب « مجمع الأمثال » للميدانى ، وجزءاً من ديوان المتنبى .

يقول الدكتور ديتريش ، وهو يعرض فى إيجاز جهود هذا العالم العظيم ، إنه إذا كان معاصروه قد أنكروا عليه أفكاره الجريئة ، فقد لقيت الإعجاب والتقدير من الأجيال التالية ، وبعد قرن من الزمان أينعت فى ليبزج — المدينة التى عاش وشقى فيها — أهم مدرسة للدراسات العربية ، لا فى ألمانيا وحدها ، بل فى العالم كله إذ ذاك .

أما عميد المستشرقين الألمان فى القرن الماضى — أى القرن التاسع عشر — فهو العلامة (فلايشر) دون منازع . ومن رأى الدكتور ديتريش أن الاستشراق الألمانى بلغ ذروته على يديه ، حتى أصبح فى القرن التاسع عشر فرعاً هاماً من فروع المعرفة الإنسانية فى أشهر الجامعات الألمانية .

وقد تعمق فلايشر فى دراسة معاجم اللغة العربية ، وقام بنقد وتنقيح الطبعات الألمانية « لنفح الطيب » و « معجم البلدان » و « الفهرست » و « الكامل » و « الكامل فى التأريخ » . وكان لتعمقه ، وسعة اطلاعه ، ودماثة خلقه ، أثرها فى اجتذاب الطلاب من ألمانيا وغيرها من البلدان الأوربية لدراسة اللغة العربية دراسة تخصص وتعمق على يديه .

وإذا تركنا التاريخ جانباً لننتقل إلى الحاضر لوجدنا جهوداً جبارة لا تزال متصلة في ألمانيا على أيدى طائفة من أكبر علمائها ، مستهدفة إخراج مزيد من كنوز الأدب العربى والفقه الإسلامى ، وإغراء المزيد من الألمان ، رجالا ونساء ، على التعمق فى دراسة اللغة العربية .

إن الأستاذ ديتريش ، الذى أشرت إليه فى هذا المقال غير مرة ، هو أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة جوتنجن ، وهو يضطلع بنصيب مشكور فى هذا المجال ، ويعكف منذ عامين على نشر أحد الكتب الهامة فى أدب القرن الرابع الهجرى ، وهو « كتاب الجليس الصالح الكافى ، والأنيس الناصح الشافى » لمؤلفه أبى زكرياء المعافى النهروانى ، ويضم هذا الكتاب قصصاً وأشعاراً من العصر الأموى ، ويتألف من مائة فصل ، يقرأ كل فصل منها فى جلسة واحدة ! !

وإذا كان كتاب « ألف ليلة وليلة » قد احتل مكانته بين روائع الترجمات الألمانية بفضل البروفسور ليتمان عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة منذ خمسين سنة وأستاذ الدكتور طه حسين وغيره من أعلام الأدب العربى الحديث ، فإن كتابا آخر فى القصص العربى قد ترجم فى العامين الماضيين بقلم العلامة المستشرق ڤير ، عن مخطوط فريد فى نوعه وُجد غير كامل باستنبول وهو « كتاب الحكايات العجيبة والأخبار الغريبة » . وهم هنا — أعنى فى ألمانيا — يجعلون لهذا الكتاب أهمية كبرى من ناحية التاريخ الأدبى للقصص العربى . وهم كذلك يقومون بنشر كتاب آخر فى الأدب الشعبى حول موضوع خيال الظل ، وقد أرّخ لهذا المسرح فى الشرق والغرب الأستاذ يعقوب وعنى فى دراسته بإنتاج ابن دانيال ، وهو الإنتاج الذى يقوم بنشره الأستاذ كاله ، رغم دقة هذا العمل وصعوبته ، إذ أن

النصوص العربية فى إنتاج ابن دانيال مكتوبة تارة بالسجع وتارة بالشعر القديم ، وأحياناً فى أبيات شعرية باللغة العامية .

والذين يعرفون الدكتور هانز إرنست بالمكتب الصحفى للسفارة الألمانية بالقاهرة يعرفون مبلغ إتقانه للغة العربية كتابة وحديثاً ، وقد يعرفون أيضا أن له مؤلفات فى مقدمتها كتاب نال به شهادة الدكتوراه عن تاريخ مصر فى عهد المماليك . وأما السيد هرمان تزيوك المستشار الصحفى السابق فى القاهرة فقد وجدته ، بعد انتقاله إلى وزارة الخارجية الألمانية ، مشغولا بنشر مختارات من القصص المصرى الحديث ، ويتضمن الجزء الأول الذى اطلعت على مواده ، قصصاً : ليحيى حقى ، ومحمود تيمور ، ويوسف الشارونى ، وإحسان عبد القدوس ، ويوسف إدريس ، ورشاد رشدى ، ونجيب محفوظ ، وأمين يوسف غراب ، ومحمود البدوى ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، والشيخ عبد العزيز البشرى . وأما المجموعة الثانية فستضم قصصاً : لمرسى سعد الدين ، وأحمد راسم ، ويوسف السباعى ، وسعيد عبده ، وطه حسين ، ومحمود كامل ، وتوفيق الحكيم .

إن الألمان يعتزون اعتزازاً كبيراً بأنه قلما تخلو جامعة ألمانية من باحث أو معهد للدراسات العربية والشرقية . وهى حقيقة لمستها فى كل جامعة زرتها ، ومن بينها جامعة توبنجن وجامعة ماربورج حيث التقيت بالبحاثة المستشرق الدكتور أوتن ولفيف من زملائه العلماء الأجلاء .

وقد لا يعلم كثيرون أن من أهم المجلات التى تصدرها « جمعية المستشرقين الألمانية » التى أسست سنة ١٨٤٠ وما زالت تواصل نشاطها حتى اليوم ، مجلة اسمها « الإسلام » للعناية بتاريخ الشرق الإسلامى وحضارته بوجه خاص ، ومجلة أخرى اسمها « العالم الإسلامى » تعنى بأحوال العالم الإسلامى فى العصر الحديث .

أما القرآن الكريم فيتمتع بقدر عظيم من التقدير والاحترام لدى الملايين من الشعب الألمانى ، وليس أدل على ذلك من الطبعات الكثيرة التى ظهرت فى ألمانيا حتى الآن من الكتاب الكريم ومن التعليقات والشروح المختلفة التى وضعت عنه وعن التعاليم الإسلامية الحنيفة .

وقد ظهرت أول طبعة من القرآن الكريم فى ألمانيا باللغة العربية فى سنة ١٦٩٣ وعنى بنشرها الأب البروتستانتى هينكلمان من كنيسة كترينا فى همبورج . وكان الأب هينكلمان يرى فى القرآن الكريم سبيلاً للتعرف على الإنسان العربى الذى يمتاز بسجايا فنية ودينية فريدة . وقد قال فى مقدمة هذه الطبعة العربية الأولى فى ألمانيا من القرآن إنه يأسف لأن القليل من الألمان فى عصره كان يفهم العربية التى وصفها بأنها أجمل لغة فى العالم .

وتحتفظ كل من المكتبة الشعبية ومكتبة الجامعة فى همبورج بنسخة من هذه الطبعة الأولى التى تعد أول طبعة للقرآن الكريم باللغة العربية لا فى ألمانيا وحدها بل فى العالم المسيحى الغربى كله .

صحيح إنه ظهرت قبل ذلك الوقت عدة ترجمات للقرآن ، كانت أولاها الترجمة اللاتينية الأولى للقرآن التى وضعت فى أسبانيا ، ونقلها إلى سويسرا الأب البروتستانتى ثيودور بابلاندر — من أبناء تشيريش ، وطبعت فى مدينة بازل فى سنة ١٥٤٣ حيث صارت المصدر الأصلى للطبعات التالية من القرآن باللغات الأوربية الأخرى .

وبعد وقت قصير صدرت طبعة إيطالية لترجمة القرآن الكريم ، خرجت ناقصة بسبب رفض سلطات مدينة البندقية نشر الترجمة الكاملة للقرآن الكريم .

أما أول ترجمة ألمانية للقرآن الكريم ، فقد ظهرت فى مطالع القرن السابع عشر حيث قام بها سالومون شفايجر ، وفى الوقت نفسه صدرت فى همبولوج ترجمة أخرى لها ، وحاول فى ذلك الوقت المستشرق يوهان اندرياس دانتس أن يطبع القرآن الكريم ، إلا أن الإمكانيات لديه عجزت عن الوفاء بذلك ، ولم يطبع الكتاب الكريم فى ألمانيا باللغة العربية حتى جاء الأب هينكلمان فأتم ذلك فى سنة ١٦٩٣ .

وتوالت طبعات القرآن الكريم فى ألمانيا منذ مطالع القرن التاسع عشر . وقد امتازت بدقة عملية متناهية ، حتى صارت موضع ثناء كبير من علماء الإسلام .

وتعتبر الترجمة التى قام بها نولدكه فى مقدمة المحاولات الناجحة التى قام بها مترجمو القرآن الكريم فى أوروبا . وقد عمل مع نولدكه كل من شفالى ، وبرجشترايسر ، وبريتسل ، فوضعوا بذلك أكمل عمل توصل إليه المترجمون فى نقل معانى القرآن إلى اللغة الألمانية .

وينبغى ألا ننسى فى هذا المجال محاولة الشاعر الألمانى « فريدريك روكيرت » الذى كان متأثراً بجمال اللغة العربية ، وبالقيم السامية التى حض عليها القرآن مما دفعه إلى نظم ترجمة شعرية لمعانى القرآن الكريم . وقد ظهرت هذه الترجمة فى سنة ١٨٨٨ . ولم تنقض إلا فترة قصيرة حتى وضع كلامروت ترجمة شعرية لأقدم ٥٠ سورة من القرآن الكريم .

ولم يقتصر اهتمام الألمان بالقرآن على المحاولات التى قام بها العلماء لترجمته بل نشر الكثيرون منهم تعليقات وشروحا لأجزاء من القرآن . وتمسك جولد تسيهر بوجهة النظر الإسلامية عندما كتب فى سنة ١٩٢٠ رسالته عن (الاتجاهات

الإسلامية من خلال تفاسير القرآن) وكذلك الحال مع هوروفيتش فى كتابه (بحوث قرآنية) فى سنة ١٩٢٦ وشيتالر (١٩٣٥) فى كتابه (تعدد الآيات فى القرآن) . وقد لاقت هذه البحوث والشروح إقبالا واهتماما كبيرين لا فى أوساط المستشرقين فحسب ، بل بين هواة الأدب العالمى والعاملين فى الحقل الدينى بوجه عام .

أما أولئك الذين تناولوا موضوعات القرآن الكريم ونظروا إليها من وجهة النظر المسيحية ، فمنهم رودلف الذى كتب عن « صلة الإسلام بالمسيحية واليهودية » وجيرزك الذى كتب « محاولة فى عرض الروح المسيحية فى القرآن » .

وبالإضافة إلى ذلك ، فهناك بحث عام نشرته صحيفة «هوخلانت» الكاثوليكية فى عددها الصادر فى يونيو ١٩٥٤ عن « مريم فى الإسلام » بقلم لا يقر . وهو بحث هام وفريد فى نوعه .

وبالإضافة إلى هذه البحوث القرآنية المستفيضة ، عنى العلماء والمؤرخون الألمان بالكتابة عن السيرة النبوية والرسول الكريم فأعطوا بذلك لمحات ودراسات مستفيضة عن أعظم مسلم فى التاريخ . ففى سنة ١٨٨٤ أصدر رودلف كريل فى لايبتسيج كتابه « حياة محمد » . وتوالت الكتب فى هذا الصدد ، حتى جاء فى ختامها بحث نشره البروفيسور باريت فى سنة ١٩٥٧ فى شتوتجارت أسماه (محمد والقرآن) .

وإذا كانت هذه البحوث تدل على شىء ، فإنما تدل على مدى اهتمام الشعب الألمانى عامة والمفكرين الألمان بصفة خاصة بالقرآن الكريم وما تضمنه من كنوز روحية وثقافية ولغوية .

أعظم أديب في تاريخ ألمانيا ..

يوهان فولفجانج جيته

في مكان آخر من هذا الكتاب يرى القراء فصلا موجزاً عن المناسبات الأدبية التي صادفتني خلال زيارتي لألمانيا . وقد ساقني ذلك الحديث عن الأدب الألماني إلى مراجعة بحث ممتع عن أعظم أدباء ألمانيا على الإطلاق ، وهو الشاعر العملاق الخالد جوته . وكنت قد ترجمت هذا البحث عن الأديب الناقد الأمريكي بيرتون راسكو ، فرأيت أن أجعل منه مسك الختام في هذا الكتاب الذي يضم أشتاتاً من ذكرياتي وتأملاتي عن الحياة والناس في ألمانيا .

سلامة العقل والبدن ، كانت هي الطابع المميز في جيته . كانت سلامة بدنه هبة من الطبيعة ، أما سلامة عقله فكانت ثمرة خطة طويلة المدى لاستئصال ما في أعماق نفسه من المخاوف والهواجس التي أحاطت به في شبابه ، وكانت جزءاً من تركة القرون الوسطى .

لقد كتب جيته رواية (فرتر) لينقذ نفسه من الانتحار ، فهو إذ جعل بطله يزهق روحه بيده قد خلص نفسه عرضاً من دافع داخلي كان يهدد قواه العقلية ولكن من سوء الحظ أن نشرت هذه الرواية على الناس فكانت سبباً في تفشي وباء الانتحار بين المراهقين في أوربا عامة ، وفي ألمانيا على وجه خاص ، وإلى هذا الحد تصل قوة الإيحاء في عمل فني قد لا يعدو في بعض الأحيان أن يكون مجرد وسيلة يلجأ إليها الفنان لتنقية عقله وتنظيفه مما تراكم فيه من سموم .

وتكاد أعظم مؤلفات جيته أن تكون كلها من مخلفات هذا التطهير النفساني

فإذا لم يكن فى استطاعة المرء أن يقرأها كتجربة عابرة ، لـكى يخلص نفسه من المشاكل نفسها التى أحاطت بجوته ، فخير له أن يطرح كثيراً من مؤلفات جيته جانباً . لقد قال نابليون باللاتينية عنه ما رأى جيته Ecce Homo أى « ها كم رجلا » وتكاد هذه العبارة تـكون بعينها تلك التى نطق بها لنـكولن عندما رأى والت هويتمان يمر تحت نافذته إذ قال : «هذا رجل !» ولـكن الذى رآه نابليون فى جيته ولنـكان فى هويتمان ، كان فى كلتا الحالتين هو الصورة المجسمة لما فى أعماق الرجلين من كرامة وصفاء نفس ، تحققا خلال عذاب وكفاح باسل ضد العوامل الهدامة فى أعماق نفس حائرة مضطربة .

كان جيته فى الستين من عمره عندما ألف (فاوست) ، وهى سجل شعرى لتجربة عميقة كاملة فى نفس إنسان إنها ليست مسرحية شعرية محبوكة الأطراف بل هى كما قال جورج براندس ، أعظم النقاد إعجاباً بجيته « كوم مضطرب متراكم بعضه فوق بعض » . إنها خالية من الانسجام والمنطق والوحدة والتناسق ، ثم هى كالحياة نفسها مغامرة لا سبيل للتنبؤ باتجاهها ومصيرها .

والرأى ينقسم حول عظمة جيته منذ انطلاقه فجأة فى دنيا الأدب ، كأنه (بيرون) ألمانى ، وقد قابل شيلر وشليجل — أعظم معاصريه فى ألمانيا — رواية (فرتر) بكل احتقار ، كما استقبلا طبع مسرحيته الشعرية (فاوست) لأول مرة بفتور يشبه الازدراء ، وبينما كانت شهرة جيته تزداد انتشاراً ونمواً فى ألمانيا وفرنسا كان نقاد انجلترا الذين يولون الجانب الخلقى أكبر نصيب من عنايتهم يشغلون أنفسهم بحياته الشخصية التى بدت فيها جوانب لا تتفق مع فكرة الرجل الإنجليزى عن سلوك السيد المهذب (الجنتلمان) ومن الطريف أن سومرست موم فى انجلترا وجيمس برانتش كيبل فى أمريكا قالا فيما بعد إنه من المستحيل أن يكتب الإنسان أدباً ثم يظل (سيداً) ! ... وأضافت الين جلاسجو وإيزابيل

باترسون أن المرأة لا تستطيع أن تؤلف كتباً جيدة وتظل سيدة مهذبة رغم ذلك !

ويوجد فى أمريكا رأيان راسخان حول قيمة جيته بالنسبه للعالم الحديث ، وبين كلا الرأيين الراسخين فرق بعيد جداً ، فأحدها يقول إن جيته نموذج (لأصحاب القمصان المنشاة) على حد التعبير الشائع فى زماننا ، والرأى الآخر هو أن جيته وحده هو نموذج (الرجل الفاوستى) الذى يجب أن نركز أفكارنا فى مثله العليا ليقودنا وينقذنا من روح الهزيمة والموت . وكلا الرأيين لا يستند كثيراً إلى المتعة التى يحتمل أن يحس بها الرجل العادى فى مطالعة جيته كفنان .

وقد كتب جورج براندس يقول عنه :

« إنه بالنسبة لأوربا وأمريكا يجب أن ينظر إليه كنموذج لا لأعمق وأوسع ظاهرة شعرية وحسب بل يجب أن ينظر إليه أيضاً كأعظم مخلوق موهوب بين البشر عامة ، شغل نفسه بالأدب منذ عصر النهضة » .

وقد يكون للمرء حقه فى شىء من التحفظ إزاء هذا الرأى ... ولكنه فى الواقع يثير فى نفسى ذكرى تلك الأشهر التى كان فيها جيته يعنى الشىء الكثير عندى . ويرجع ذلك إلى سنة ١٩٠٩ حينما كنت أعمل بائعاً للصحف فى شونى بولاية أوكلاهوما ، وقد وجهنى إلى جيته إمرسون وكارليل ، ولما كنت أجهل الألمانية فقد استعرت ترجمة فاوست بقلم بايارد تيلور من مكتبة كارنجى العامة . وظللت أطالع هذا الكتاب عدة أسابيع بين الرابعة والخامسة صباحاً فى أثناء تناول طعام الإفطار فى قهوة البلدية ، وكان صديقى (جس) Gus واسمه الحقيقى كونستانتينوس باباثاكوس — قد تخرج فى معهد فى اسبرطة ووصل

إلى أمريكا (أرض الأحرار) كما كانوا يسمونها ، من طريق نظام التعهد الذى كان ولعله لا يزال سائداً حتى الآن ، وهو يبيح لأى صبي يوناني طموح إلى مستقبل أفضل أن يوقع تعهداً يتنازل بمقتضاه عن الجانب الأكبر من أجره كماسح أحذية مدى سنوات معينة ، لأى شخص يدفع له ثمن تذكرة السفر. وكان (جس) قد أوفى بتعهده وأصبح من الثراء بحيث يملك حصة فى أحد المطاعم ، وقد قدر لى أن أتعلم من اللغة اليونانية على يد (جس) أكثر من كل ما تعلمته على يد أى من أساتذتى الجامعيين فيما بعد ، إذ كان قادراً على أن يبعث الحياة فى الأدب الذى كان يحلم به بينما كان الطاهى يلبى نداءات الساقى بإعداد أطباق الطعام ، ويقرأ لى اسخيلوس وهومر ، فى الصباح الباكر فى لغتهما الأصلية ، كما كان اليونانيون القدامى ينطقونها ثم نتولى معاً ترجمة ما قرأه هو. وقد ظللت أسابيع طويلة أحمل ترجمة تيلور لرواية فاوست فى حافظة الصحف التى أبيعها ، حتى إذا بلغت المقهى لتناول الإفطار مضيت أقرأ حتى مطلع النهار ، بينما يغفو (جس) فى مقعد خلف عداد النقود . وقد أدت بى قراءة (فاوست) إلى أن أتعلم الألمانية وأن أجد فى أشعار جيته وهاينى متعة ما زالت ذكرياتها العاطفية باقية فى نفسى حتى اليوم .

وأسطورة (فاوست) ترجع إل القرون الوسطى ولكن جيته عالجها بطريقة حديثة تماماً وكانت الأسطورة قديمة قبل أن تتبلور فى الحكايات التى تجمعت حول شخص يدعى الدكتور برهان فاوستس كان من أهل فتنبرج بألمانيا . خلال الشطر الأول من القرن السادس عشر ، ويبدو أن هذا الدكتور فاوستس كان منجماً وعالماً روحانياً يدعى القدرة على تحضير الأرواح والعثور على المخطوطات المفقودة لعظماء المؤلفين القدماء ، وكان كذلك نصاباً محتالا يستغل مهارته فى عدة صور لابتزاز أموال السذج من الناس . ومن هنا شاع عنه أنه باع روحه للشيطان . ومن

المحتمل أنه كان ينتمى لأحد مذاهب السحر والشعوذة التى ازدهرت مع المسيحية جنباً إلى جنب فى أوربا خلال القرون الوسطى ، وما زالت منتشرة فى جماعات كثيرة حتى اليوم ، وقد اختفى فى ظروف غامضة ، وبدأت (تراجم) لحياة الدكتور فاوست وتلميذه كريستوفر فاجنر تظهر فى ألمانيا وانجلترا فى أواخر ذلك القرن دون أن تظهر أسماء مؤلفيها . وأولى هذه التراجم باللغة الانجليزية ظهرت عام ١٥٩٢ بعنوان (تاريخ حياة الدكتور جون فاوستس الملعونة وموته الحق) ، وقد وضع هذا الكتاب فى قالب عصرى بقلم وليم روز ، ونشر فى (سلسلة تراجم برودواى) .

وتتكون رواية (فاوست) من جزأين : الأول مأساة (تراجيدية) غنائية ، والجزء الثانى عبارة عن غابة فلسفية غير مطروقة تهم أولئك الذين يحبون أن يتابعوا تفكير جيته فى شتى مناحيه ودراساته . والجزء الأول وحده هو الذى لا يزال مصدر متعة دائمة للقارىء العادى . وسيجد الذين لا يقرأون الألمانية أن خير ترجمة له هى تلك التى تولتها أليس رافاييل وصاغتها شعراً باللغة الانجليزية وقد قال مارك فان دورين « إن ترجمة بايارد تيلور لفاوست ، رغم أنها كانت تعد خير التراجم فى وقت ما ، ورغم أنها لا تزال تتمتع بتقدير خاص فى أماكن كثيرة حتى اليوم ، تحمل غبار الاصطلاحات الفكتورية والانعكاسات الفكتورية والبلاغة الفكتورية — نسبة إلى عصر الملكة فكتوريا — بينما ترجمة مس رافاييل من صنع شاعرة حديثة موهوبة ، ظلت طول حياتها تلميذة وفية لجيته .

لقد استهدف جيته فى معالجة موضوع فاوست أن يتخذ منه وسيلة وقالباً لوضع مسرحية شعرية تصور المشاعر التى تدور حول الرغبات والنزعات المتضاربة

فى قلب الإنسان فيما يتعلق بالإقبال على الحياة أو الصد عنها . فهناك وسائل كثيرة للصد عن الحياة دون حاجة لدخول الدير ، منها أن يطوق المرء نفسه بسياج من المحرمات والمحظورات ، كما فعل ملتون إذ رفض تجربة الحياة وحبس نفسه فى دنيا حالمة من المنطق الفلسفى ، ورسالة فاوست هى أن الناس يجب أن تكون لديهم الشجاعة لمواجهة الحياة كمغامرة ، وأن يتيحوا الفرصة لكل إمكانياتهم حتى يكون تطورهم كاملاً غير مقصور على ناحية واحدة ، إنها فلسفة أليس هافلوك فى (رقصة الحياة) وإيلى فور فى (الرقص فوق النار والماء) ، وقد نبه جورج براندس إلى أن جيته لم يكن شخصية بطولية ، بل كان رجلا مكتملا ، عاش حياة حافلة ، رغم أنه كان مواطناً ألمانيا من الطبقة الريفية الوسطى .

* * *

ولد يوهان فولفانج جيته — وقد حصل على لقب (فون) فيما بعد — فى مدينة (فرنكفورت أم مين) فى ٢٨ أغسطس سنة ١٧٤٩ ، وكان أبوه محامياً ينحدر من سلالة حدادين وخياطين ، وأمه تنحدر من عائلة نبيلة صغيرة ، وكان يوهان جاسبار جيته صارماً ، شديد التمسك بالنظام ، ضيق الأفق ، متحذلقاً وقد صمم على أن يعد ولده من الناحية الثقافية إعداداً كاملا لمواجهة معركة الحياة ، ومن ثم فرض على فولفجانج ، وهو صبى صغير أن يعكف ساعات طوالا على دراسة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والانجليزية — وكذلك العلوم الطبيعية وعلم العروض ، وقد فرض عليه أيضاً كتابة موضوعات إنشائية عما رأى وما سمع ، ومحاولة قرض الشعر . فكان لهذا النظام أثره الفعال فى التطور العقلى لجيته ، ولكنه كان صارماً إلى الحد الذى أثار كراهية الابن لأبيه ، وربما وجدنا فى فاوست صدى ثورة جيته على الإسراف فى الاعتماد على الكتب

فى التعليم ، وذلك حيث نجد فاوست يقرر أن يترك مكتبته ويسعى فى طلب المغامرات العاطفية .

أرسل جيته لدراسة القانون فى جامعة ليبزج ، فلم يكد يتحرر بذلك من حظيرة والديه حتى بدأ أول اتصال له بالحياة ، فأهمل دراساته القانونية ، واشترك مع زملائه الطلبة فى نشاطهم ووقع فى غرام ابنة تاجر كبير للنبيذ ، وراح يقرض الشعر ، ويهوى الرسم بالألوان ، ويقرأ (لاوكون) للسينج بحماسة بالغة ، ولكنه أسرف على نفسه فى أولى انطلاقاته الحرة ، فانهارت صحته تحت ضغط هذا الإسراف وأصيب بنزيف فى رئتيه ، واضطر للعودة إلى فرانكفورت دون أن يحصل على درجته الجامعية .

وبعد عامين من العلاج والنقاهة ذهب جيته إلى ستراسبورج ليدرس القانون فى جامعتها ، وخرج منها بدرجة أستاذ فى القانون ، ولكنه خرج أيضاً بما هو أهم من ذلك بالنسبة لحياته العملية فيما بعد : خرج بمجموعة ضخمة من الشعر الغنائى ، ومسرحية شعرية هى (جيتز فون برليشنجن) كما خرج بفكرة فاوست . وفى ستراسبورج وقع تحت تأثير الناقد الشاعر الفيلسوف . يوهان جوتفريد هردر الذى كان رائد الفكر الألمانى فى القرن الثامن عشر وشهدت ستراسبورج أيضاً أول غرام جدى لجيته ، مع (فردريكا بريون) ، ابنة أحد القسس ، ولهذا الغرام يدين الأدب بكثير من أجمل قصائد جيته الغرامية .

وعاد جيته إلى فرنكفورت لا ليمارس المحاماة بل ليشتغل بالصحافة وينصرف جدياً إلى حياة الأدب ، وفى خلال أربعة أعوام نمت مواهبه وتطورت تطوراً سريعاً كشاعر فلم يكد يبلغ السادسة والعشرين حتى كان قد أصبح أعظم رجال الأدب فى ألمانيا فى عصره ، وبلغ شهرة ضاعف من سرعة انتشارها ظهور روايته

الغرامية (الرومنطقية) فرتر ، ونشر مسرحيته الشعرية (جيتز) التى قرظها أعظم النقاد ، وفى فرنكفورت كانت لجيته مغامرتان من أهم مغامراته الغرامية إحداهما مع شارلوت بوف ، وقد صورها باسم (لوتى) فى رواية (فرتر) ، والمغامرة الثانية مع ليلى شونمان . وكانت قصة غرامه مع ليلى قصة غيرة عاصفة ، إذ كانت ليلى فتاة لعوباً ذات قلب لا يقل عن قلب جيته فى تحوله وسرعة تأثره . وقد تمت بينهما خطبة لم تلبث أن فسخت تحت ضغط كلتا العائلتين .

وبعد انتهاء هذه المغامرة مع ليلى قبل جيته دعوة من الدوق الشاب شارل أوغسطس دوق ساكس فيمار للاقامة فى فيمار . وكان الدوق وحماته معنيين حينئذ بتكوين حلقة أدبية حول البلاط الإقليمى الصغير ، وكانا قد زارا جيته فى فرنكفورت ، حيث عرضا عليه منصب مستشار براتب سنوى كبير . وكان أن اشترى جيته داراً فى فيمار وظل إلى آخر حياته المديدة لا يغادر المدينة الهادئة الصغيرة إلا فى القليل النادر من الأحوال .

وقد أقبل جيته على عمله الحكومى هذا فى جد وعناية ، وما زال يترقى فيه درجة وراتباً حتى أنعم عليه الإمبراطور جوزيف الثانى بلقب النبل (فون) ومنحه شعار الشرف . وقد أخذها على جيته كثيرون من النقاد واعتبروها وصمة فى تاريخه إذ عابوا عليه أن يسمح لنفسه بأن يكون صنيعة بين النبلاء وموظفاً سياسياً فى بلاط تافه ، ولكن يبدو لى أن ما صنعه يتفق تماماً مع فلسفة الحياة التى أدركها — وهى أن يتقبل الحياة كما هى ، وأن ينهض بواجباته ومسئولياته كما ينبغى لكل مواطن . وقد كان يؤدى عمله فى حرية ودون قيد أو تحفظ وظل إنتاجه الأدبى مستمراً وغزيراً حتى يوم وفاته فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٨٣٢ ، فى سن الرابعة والثمانين .

* * *

عندما ذهب جيته إلى فيمار لأول مرة كان فتى طويل القامة وسيما ، رشيقاً مشبوب العاطفة ، حتى قيل إنه يشبه أدونيس (عاشق أفروديت فى الأساطير) وقد عاش بما يتفق مع شهرته (البيرونية) ، فراح يشرب ويلهو وينغمس فى الملذات ، ووقع فى غرام فراو فون شتين زوجة أمين (اصطبلات) الدوق وهى امرأة تكبره بسبع سنوات وحول علاقته بفراو فون شتين هذه — هل كانت أفلاطونية أو لم تكن — وضعت مؤلفات كثيرة قائمة على الحدس والتخمين . ويكاد يتفق الرأى الآن على أنها ظلت أفلاطونية نحو سبع سنوات ، وأنها أصبحت غير ذلك فترة قصيرة ، وأنه بمجرد أن تغير الطابع الأفلاطونى لهذه العلاقة ورفعت منها الكلفة ، تحطمت الصورة الوهمية التى كانت لديه عن فراو فون شتين ، وبعد خلافات عنيفة أظهرت فراو فون شتين فيها مرارة غيرتها من صديقة جيته ، كريستين فولپيوس ، أسدل الستار على هذه المغامرة بسفر جيته إلى ايطاليا ، حيث أقام أكثر من عام .

وكانت كريستين فتاة ريفية جميلة ، جاهلة تشتغل فى مصنع بمدينة فيمار ، عندما جاءت إلى جيته ، وهى يومئذ فى الثالثة والعشرين وهو فى الأربعين ، ومعها عريضة تلتمس فيها مساعدة أخيها فى الحصول على عمل ما ، فأخذ جيته بجمالها ودعاها فى أول الأمر للتردد عليه سراً ، ولم يلبث اللغط أن دار فى المدينة الصغيرة وعرف سر العلاقة بينهما ، وكانت فضيحة لم تهتز لها النعرة الأخلاقية بين الطبقة الوسطى فى المدينة ، إذ كانت غراميات جيته سراً معلوما للجميع ، ولكن النعرة الإجتماعية فى محيط البلاط الصغير هى التى اهتزت وثارت بدعوى أن جيته تنزل إلى الاتصال بفتاة أدنى منه فى المرتبة الاجتماعية . فأمعن جيته فى تحدى هذه النعرة الاجتماعية وزاد فى حدة الثورة عليه ، بأن تزوج كريستين

فى ١٩ أكتوبر سنة ١٨٠٦ ، وكان قبل ذلك ببعض الوقت قد جعلها تقيم فى بيته ، وقدمها لبعض الغرباء على أنها « ابنة أخته » وعينها فى وظيفة مدبرة المنزل.

ومن العسير أن يدافع المرء عن تصرفات جيته إزاء كريستين ، فقد رفضت نساء فيمار الاختلاط بها اجتماعياً ، وعندما كان جيته يدعوهن إلى بيته كانت كريستين تعامل كخادمة من جانب زوجها ومن جانب المدعوين على السواء ، فلم تكن تجلس إلى مائدة العشاء ، وكانت تظل بمعزل عن الأنظار بوجه عام . وكانت أول سيدة تدعوها مدام جيته لتناول الطعام فى بيتها مدام يوهانا شوبنهاور ، أم الفيلسوف المتشائم المشهور التى كانت هى نفسها كاتبة معروفة . وكانت مدام شوبنهاور قد انتقلت من دانتزج إلى فيمار كأرملة غنية لأحد كبار المصرفين ، وكشخصية أدبية لا يعلق بسمعتها الاجتماعية غبار ، ولكن إحتضان كريستين بواسطة مدام شوبنهاور وانتصار الأخيرة لها لم يفلحا فى كسر حدة التحامل المطرد ضد عاملة المصنع السابقة ، وعندما توفيت كريستين فى شهر يونية سنة ١٨١٦ ، وكانت لا تزال أشبه بالمنبوذة من المجتمع رغم أن ابنها كان قد شب وتزوج ابنة البارون بوجنش ، ومنح جيته وزوجته ثلاثة أحفاد .

ويعتبر سجل النساء فى حياة جيته سجلا حافلاً ، وقد شغل تاريخ علاقاته بالنساء مجلدات عدة . وقد كان من النوع الذى يستمد نشاطه من تعدد غرامياته ولكن هذا النشاط العاطفى المتجدد باستمرار لم يحطم قواه ، شأن غيره من العشاق التقليديين ، ولعل السبب فى ذلك أنه بعد الفترة الأولى من شبابه لم يهب كثيراً من نفسه لأحد ، بل احتفظ بعواطفه الحقيقية لكتاباته ، وقد بلغ فى حياته من الهدوء والصفاء النفسى ما لم يحس به قط مواطنه الذى يفوقه فى الشعر الوجدانى ويصغره فى السن ، هينريش هاينى . ولكن جيته كان ألمانياً قحاً ،

الوجدانى ويصغره فى السن ، هينريش هاينى . ولكن جيته كان ألمانياً قحاً ، وقد لوحظ أنه لم يخلق تعبيراً جديداً بل استخدم القالب المسرحى بقدر ما استخدم اللغة الألمانية الكلاسيكية — ثم إن هاينى كان ذا مزاج يهودى ، ساخر ، حاقد على كل ما هو ألمانى ، لكثرة ما عانى فى شبابه من عداء الألمان للجنس السامى .



أسماء ومسميات لا تنسى

أسماء ، ومسميات ، سأظل أذكرها طويلا ، وأستحضر معها كثيراً من الخواطر والتأملات ، بعد أن أغادر أرض هذا البلد العظيم . دعونى أسرد عليكم بعض هذه الأسماء على سبيل المثال دون الحصر ، وبلا ترتيب زمنى معين .

البرد ، الصقيع ، الجليد ، الثلج . . . سأظل أذكرها كلها طويلا جداً بعد هذه الرحلة ... لقد خدعنى الجو فى الأيام الأربعة أو الخمسة الأولى ؛ حين هبطت مدينة هامبورج أجمل وأكبر ميناء فى شمال أوربا ، فإذا الشمس تغمر المدينة بجمالها ، ولا أستطيع أن أقول بدفئها ، طوال أيام إقامتى الأربعة بالمدينة ، حتى كان الذين أقابلهم يشكروننى مازحين على أننى أحضرت شمس مصر إلى هامبورج فى الوقت الذى لا يتوقعونها فيه . وبعد ذلك لم أر الشمس إلا مرة واحدة طوال الأسابيع الستة التالية — وإن كنت رأيتها أيضاً فى أجمل قرية أو على الأصح أجمل مدينة صغيرة على وجه الأرض ، وهى جارميش — بارتنكيرش ، التى لا يزال أهلها يحافظون على أعجب تقاليدها إذ يطلون واجهات المنازل باللوحات الملونة ... ويحافظون على طابع الأبنية الخشبية القديمة ، كما أنها أيضاً مشتى عالمى مشهور على الحدود بين ألمانيا والنمسا .

وقد سجلت هذه الكلمات والثلج ينهمر ، والبرد يصك الركب ، والأرصاد الجوية تحذر الناس من أخطار الطريق والصحف والإذاعات تؤكد أن هذا الجو لا يقتصر على ألمانيا حيث تجمدت الأنهار ، وسدت الطرق فى مواضع كثيرة ، واضطربت حركة الانتقال بكل وسائله ، ولكنها موجة غير عادية

من البرد اجتاحت أوربا وأمريكا أيضاً ، وسببت مصادمات وحرائق وخسائر في الأرواح وأن العالم لم يشهد مثل هذه الموجة القاسية في هذا القرن كله . ومع ذلك فإنني غير نادم على زيارة ألمانيا في عز الشتاء . لأتمتع بمنظر الأطفال والشبان يتزحلقون على الأنهار المتجمدة ، وأرى كيف يكافح الإنسان متاعب الطبيعة الهائلة ، وأشهد قصراً من أجمل قصور ألمانيا ، وهو قصر ليندرهوف الذي بناه لودينج أولويس الثاني ملك بافاريا الحالم — ولا أقول المجنون حتى لا يغضب لذلك أصدقائي الباڤاريون الكثيرون — لكي يهرب من (دوشة) السياسيين !

إن منظر هذا القصر وما أمامه من نافورات بديعة مكسوة باللون الأبيض الشفاف كالقصر نفسه . . . تجعله قبلة الألوف من السائحين في الشتاء أكثر من الصيف .

شيفرجيزيلشافت : Schiffergesellschaft اسم طويل عسير النطق على الذين لا يعرفون الألمانية ، ولكنه يعني « دار اتحاد رجال البحر » ، وهو في الواقع مطعم تاريخي في مدينة لوبيك السياحية الجميلة في أقصى شمالي ألمانيا ، يرجع تاريخه إلى نحو ٤٥٠ سنة . وكان من زبائنه الذين يعتز بهم أوتو فون بسمارك أول مستشار (أي رئيس حكومة) لألمانيا بعد إتحادها بفضل جهوده الجبارة سنة ١٨٧١ . وقد رأيت صورته معلقة في ذلك المطعم العتيق فوق المكان الذي كان يختاره للجلوس وتناول الطعام ، وتدخين الغليون ، وإدارة دفة الحديث مع أصدقائه في ذلك الحين . ويتوسط المطعم المزدان بنماذج للسفن القديمة السابحة فوق رءوس رواده ، تحفة نحاسية جميلة ضخمة كانت هدية له من امبراطور ألمانيا السابق غليوم الثاني .

« صندوق الأحزان » : هناك فى ولاية بافاريا ذات التقاليـــد الريفية الأصيلة ، والأهازيج الجبلية الساحرة ، تجرى حركة من أعظم الحركات لتنشئة الشباب الألمانى على مبادىء الحرية والديموقراطية . وعلى شىء آخر لا يقل نبلا وقيمة : وهو : الرحمة والرفق بالمحتاجين والعجائز والضعفاء . ولهذا وضعوا فى أماكن ظاهرة صناديق مغلقة يسمونها صناديق الأحزان ، أشبه بصناديق البريد وفى هـــذه الصناديق يضع العجائز من النساء والرجال ما يشاءون من طلبات المعونة ، فيجد الشباب الناشىء لذة خاصة فى الإقبال على بحث هذه الطلبات ، والاتصال بأصحابها ، والعمل على إجابتها بكل ما فى طاقتهم من جهد ، وما لديهم من وسائل . لقد تمنيت أن يسمى « صندوق الأمل » لا « صندوق الأحزان » .

« ردينش موزيوم أو المتحف الألمانى » : لم أدرك مبلغ خسارتى لو لم أزر هذا المتحف فى مدينة ميونيخ ، إلا بعد أن ذهبت إليه متورطاً ، تحت إلحاح الإذاعى التليفزيونى اللامع طـاهر أبو زيد ، فإذا هو شىء لا مثيل له فى العالم أجمع . إن اسمه لا يدل عليه دلالة حقيقية . إنه معهد نادر المثال للأطفال والصبية والشبان والـكهول والشيوخ . إنه يروى بالنماذج المجسمة المتحركة ، العاملة بالأزرار الـكهربائية ، قصة التطور التاريخى للعلوم والصناعات بأسلوب واضح ، بسيط ، مسلسل ، لم أر له مثيلا فى القارات الأربع التى زرتها حتى الآن . إنك تدخل المتحف لترى مثلا تطور السفن ، فإذا بك تسير بالفعل داخل السفن ، فضلا عن رؤية مناظرها الخارجية . ولا تزال تنتقل من سفينة بدائية إلى أخرى متطورة ، حتى تجد نفسك بعد مشوار طويل قد وصلت إلى أحدث الغواصات التى استخدمت فى الحرب العالمية الثانية . وتدخل مثلا قسم المناجم فلا يوجد شىء فى عالم الفحم والمعادن لا تمر به تحت الأرض ، فى قلب مناجم مجسمة تجسيما يستوقفك

عند كل خطوة تخطوها ، حتى لتكاد توجه الكلام إلى تماثيل العمال المسكين بعصابيحهم المختلفة من أقدم العصور حتى الآن . إن صاحب فكرة هذا المتحف الفريد فى نوعه هو المهندس الألمانى أوسكار فون ميلر يؤيده ويسانده عدد من مشاهير الألمان أمثال كروب ، ورونتجن ، والكونت تسبلن ، مخترع البالون المشهور . ولكى يزور المرء جميع أقسام المتحف يجب أن يقطع فى داخله نحو خمسة عشر كيلو مترا ... وقد زاره رئيس الجمهورية الاتحادية السابق ذات يوم ، وبعد أن أبدى إعجابه الشديد بتنسيقه وطريقة عرضه ، التفت إلى الذين من حوله وقال لهم : « لم يبق إلا أن أعرف كيف تصنع أقفال الملابس (أى السوست) » !

وبدلا من قناعة المشرفين على المتحف بهذه التحية الطريفة ، أخذوها بمعناها الحرفى ، وأضافوا إلى المعرض بالفعل نماذج تبين طريقة صنع (السوست) ونظريتها !

كورفورستندام : وجدت عناء كبيراً فى النطق باسمه حتى قالوا لى إن فى استطاعتى اختصاره بأن أقول « كودام » ، وهو أجمل شارع فى برلين ، ويسمونه « برودواى برلين » ، ولكن طريقتهم فى استخدام (فترينات) مستقلة لعرض الملابس والحلى والعطور وكل مايباع فى الحوانيت الجميلة المنسقة الواجهات على أحدث طراز . تجعله يمتاز بظاهرة لا مثيل لها فى أية مدينة أخرى . أما أسعار هذه المعروضات ، فهى بالطبع تقف على قدم المساواة ، وأكثر قليلا مع الأسعار اللاذعة التى تنفرد بها متاجر الشانزليزيه فى باريس وفيفث أفنيو فى نيويورك .

برج ستوتجارت : إنه برج التلفزيون الجديد فى مدينة أخرى من أجمل مدن ألمانيا ، وهى مدينة ستوتجارت الصناعية التى تضم مصانع مرسيدس بنز . ويعتبر

هذا البرج من أروع الأعمال الهندسية والسياحية فى ألمانيا كلها . وقد استغرق بناؤه عشرين شهراً ، وتم افتتاحه فى فبراير سنة ١٩٥٦ . وهو يلى فى الارتفاع برج إيفل بباريس ؛ ويزيد على ارتفاع هرم الجيزة الأكبر، كما يفاخرون بالرسم البيانى الأنيق ، مسافة ١٩ متراً . وهو عبارة عن عمود من الأسمنت المسلح الأملس يقل محيطه تدريجياً مع الارتفاع ، حتى يصل إلى ما يسمونه هنا « عش الغراب » وهو الأدوار الأربعة التى تقع فيها قاعة الإرسال التلفزيونى ، والمطبخ والمطعمان والطابقان اللذان يستخدمان لمشاهدة معالم المدينة من هذا الارتفاع الشاهق . ثم يمتد العمود فوق « عش الغراب » فيرتفع مسافة ١٧٠ قدما . ومن العبث أن أحاول الدخول فى الدقائق الفنية والمعمارية المتعلقة بهذا البرج . ولكنى أحب أن أقول إننى وقد زرته وتناولت العشاء فى مطعمه الذى يتسع لجلوس مائة وستين شخصاً على موائد حول نوافذه ، تمنيت أن أرى فيما يماثله من أبراج للتلفزيون أو الإرسال اللاسلكى مثل هذه العناية ، ومثل هذه الخدمة ومثل هذه الصيانة ، ومثل هذا النظام ، ومثل هذا التنسيق ، ومثل هذه النشرات المصورة الأنيقة الطبع الغزيرة المادة ، التى تجعل منه تحفة سياحية حقيقية . فليس من المصادفة أن يكون عدد زوار برج ستوتجارت قد بلغ فى السنوات الثلاث الأولى بعد افتتاحه نحو ثلاثة ملايين شخص !

نفرتيتى : ملكة مصر الساحرة التى جن بحبها هتلر ، ولا يزال ملايين الألمان يهيمون بجمالها بعد زوال نظام هتلر ، ودكتاتورية هتلر ، فيحيطونها هنا بعناية ، ورعاية ، وإعجاب ، ويخصصون لها غرفة مستقلة فى المتحف الذى يضم روائع أخرى عالمية فى النحت والتصوير . عندما ذهبت لزيارتها ، ولا أقول لزيارة المتحف ، على بعد دقائق من قلب برلين ، تسمرت فى مكانى أكثر من نصف ساعة . إنها أجمل بكثير من كل صورة ملونة أو غير ملونة رأيتها لها . إن الفنان

المصرى الذى اختار لون الوجه الطبيعى ، ورسم هـذا المكياج الذى تتناقله باريس وبرلين ونيويورك ولندن بعد أكثر من ألفى سنة . . . قد صنع معجزة أخرى ، حينما رسم فمها ، ورسم عليه ابتسامة خفية من الطرفين ، تجعل الملايين الذين رأوا نفرتيتى يطوفون حولهـا مرة بعد مرة ، ليشبعوا أنظارهم ونفوسهم بسحر الملكة المصرية أو على الأصح بفن الفنان المصرى المجهول الذى ترك للبشرية هذه التحفة الخالدة . لقد ودعتها والدموع تكاد تطفر من عينى . وقبل أن أغادر المتحف شعرت بدافع قوى جعلنى أعود إليهـا مسرعا لألقى عليها مرة أخرى تحيـة الوداع ... فوجدتنى أقول لها بدلا من ذلك : إلى اللقاء !

عند جبابرة الصناعة ...
ديملر بنز - شيرنج

كان الألمان قبل الحرب ، واستطاعوا أن يعودوا مرة أخرى بعد الحرب ، جبابرة حقاً فى دنيا الصناعات الثقيلة ، والصناعات الكيماوية .

وما علينا لنتبين هذه الحقيقة سوى أن نذكر أسماء كروب ، وديماج ، وباير ، وشيرنج ، ومسرشميت ، وديملر بنز ، وفولكسفاجن ، وغيرها .

وقد استطعت خلال رحلتى أن أزور مجموعتين على الأقل من هذه المصانع العتيدة ، هما مصانع شركة شيرنج للأدوية ، فى برلين . ومصانع ديملر بنز بالقرب من شتوتجارت .

أما مصانع شيرنج ، فقد يستطيع القارىء أن يدرك أهميتها بالنسبة إلينا هنا ، أعنى بالجمهورية العربية المتحدة ، إذا قلنا إنها تتحكم الآن فعلا ، أو هى ترجو أن تساعدنا على أن نتحكم فى رفع مستوى المعيشة بإحدى الوسائل التى لا مناص منها ، وهى تحديد النسل أو بعبارة أدق تنظيم النسل .

إن شركة شيرنج هى التى تزودنا بحبوب (أنوفلار) التى اعتمدتها الهيئات الطبية العالمية ، وأقرتها حكومات عربية كثيرة منها الجمهورية العربية المتحدة ، كدواء صحى ناجع لوقف ما يسميه صديقى على أمين (سباق الأرانب) فى إنجاب الأطفال .

وقد تقدمت شركة شيرنج بعرض استغرق بحثه جهوداً كثيرة ، وشهوراً

كثيرة ، ونفقات كثيرة من ناحية الشركة — لصنع هـذه الحبوب فى القاهرة وبيعها بسعر ضئيل للملايين من أبناء هـذه المنطقة كلها . ولا أستطيع أن أدخل فى تفاصيـل المباحثات والاتفاقات التى جرت بين المسئولين فى الجمهورية العربية المتحدة وشركة شيرنج فى هذا الصدد ، وإن كنت قد حرصت على تتبعها عن كثب ، وترقبت نجاحها بكل شغف ، لسبب ربما يبدو عاطفياً وهو أننى تعرضت فى حياتى الصحفية لأعنف ألوان الهجوم والنقد ، ولا سيما بين عامى ١٩٥٥و١٩٥٧ ، عندما كنت رئيساً لتحرير جريدة الجمهورية ، وذلك من جراء حملة صحفية قوية ، كان لى شرف السبق فى القيام بها حتى قبل ذلك بسنوات للحد من الإسراف الفاحش فى التناسل ، مع العجز التام الذى يعانيـه معظم الآباء والأمهات فى تنشـئة أولادهم الـكثيرين تنشئة صالحة تفيد المجتمع . وقد ضاعف من سرورى ما علمته بعد زيارة مصانع شركة شيرنج الضخمة فى برلين من أن التعاون بينها وبين الجمهورية العربية المتحـدة لا يقتصر على البحث فى تصنيع عقار الأنوفلار ، بل إن الاتفاق قد تم فعلا على إنتاج ٣٤ مستحضراً طبياً من مستحضرات شـيرنج ، كخطوة أولى فى برنامج تصنيع الدواء بالجمهورية العربية المتحدة . كما فتحت الشركة أبواب معاملها ومراكز أبحاثها أمام الخبراء العرب . ومما يذكر أن هذه المراكز — أى مراكز البحث العلمى وحدها فى الشركة — تضم خمسمائة من الخبراء الألمان ومساعديهم .

أما موظفو الشركة الآن فيتجاوز عددهم ثمانيـة آلاف نفس ، بينهم عدد كبير من النساء . وقد شهدت فى طوافى بمصـانع الشركة ومعاملها وأقسامها الإدارية فى برلين مثلا آخر من أمثلة التعمير بعد التدمير الذى ألحقته الحرب بالمنشآت الصنـاعية الألمـانية على نطاق يصعب أن يتخيله المرء .

وعندما التقينا حول مائدة الغداء بالمطعم الفاخر الأنيق الذى يقع بأعلى مبنى

إدارة الشركة ، بدعوة من مديرها الإدارى الهر أولريخ ، ومعنا لفيف من مساعديه، بعضهم زار مصر وعمل فيها وأحبها مثل الهر بوده ، وبعضهم لم يزرها ولكنه مأخوذ بما سمعه عنها ، مثل الدكتورة أورسولا شتيلنج ، عرفت ما للشعب العربى من مكانة روحية ، ومعنوية سامية فى نفوس المشرفين على هذه الشركة .

فالجانب المادى الذى يتطلعون إليه ، كما قال لى الهر أولريخ بصراحة تامة ، لا يكاد يذكر إلى جانب ميزانية الشركة الضخمة . ولكن النواحى الأدبية والإنسانية — ولم يقل السياسية أيضاً كما كنت أتوقع — هى التى تجعلهم يحرصون على الذهاب فى مباحثاتهم معنا إلى الحد الذى لا يحبون عادة أن يذهبوا إليه ، ولاسيما إذا تعرضت لمناوأتهم فى العطاءات والمباحثات بعض الشركات التى لا ترقى إلى مكانتهم العلمية والصناعية ذات الشهرة العالمية وهى مكانة لم يبلغوها بين يوم وليله ، ولكنها ثمرة كفاح وعمل ومثابرة يرجع عهدها إلى أحد عشر عقداً من الزمان ، منذ آلت إحدى الصيدليات فى برلين سنة ١٨٥١ إلى الأقرباذى الذى تحمل الشركة اسمه حتى اليوم ، وهو إرنست شيرنج . وقد أصبحت الشركة تنتج فى الوقت نفسه مجموعة كبيرة من مبيدات الحشرات والفطريات والنيماتودا (وقد قيل لى إن هذه النيماتودا نوع من أنواع الديدان) ! كما تملك الشركة محطات تجارب ضخمة للعمل على زيادة إنتاج القطاع الزراعى فى العالم .

أما زيارتى للمجموعة الصناعية الثانية ، فقد تمت فى شتوتجارت عروس ولاية بادن فرتمبرج وعاصمتها ذات البرج التليفزيونى الفريد فى نوعه . إذ دعيت لزيارة مصانع (ديملر — بنز) وكنت أعتقد أنها تسمى مصانع (مرسيدس — بنز) فكانت قصة الأسماء من أمتع مفاجآت هذه الزيارة لمصانع أول شركة أخرجت للعالم أول سيارة فى تاريخه .

إن اسم الشركة كما قلت هو (ديملر — بنز) ، وهو يتكون من اسمين. أحدهما (جوتليب ديملر) الذى اخترع أول محرك عالى السرعة يدور بالجازولين . والآخر هو (كارل بنز) صانع أول سيارة فى التاريخ . وقد حقق كلا الرجلين انتصاره العلمى الفذ فى أواخر القرن التاسع عشر ، ثم انضمت مصانعهما معاً سنة ١٩٢٦ فيما أصبح يعرف بعد ذلك باسم شركة (ديملر — بنز) . وهى الشركة التى تطور إنتاجها واتسع بحيث أصبح إنتاجاً ثلاثياً يشمل وسائل النقل فى البر والبحر والجو (ومن هنا جاءت العلامة الثلاثية التى توضع فى مقدمة كل سياراتها) .

وعندما جاءت الحرب ونزلت الهزيمة بألمانيا توقف إنتاج محركات الطائرات والسفن فى مصانع (ديملر بنز) ، بناء على إرادة المنتصرين . واقتصر الإنتاج على فرع واحد من الأفرع الثلاثة . وهو السيارات . وقد بلغ هذا الإنتاج فى العام الماضى ، طبقاً للاحصائيات الرسمية ١٤٦٫٠٠٠ سيارة من ماركة (مرسيدس — بنز) و ٥١ ألف سيارة نقل وركاب وجرارات ، صـــدر منها إلى الخارج ٦٩ ألف سيارة (بزيادة ١٠٪ على سنة ١٩٦١) .

ومن أين جاء اسم (مرسيدس) إذن ؟

لقد أجاب عن سؤالى هذا الأمير (ألبرت فون أوراخ) مستشار الشركة الصحفى ، وهو وريث عرش امبراطورية آل هابسبورج ، ويحب الصحافة والعمل الصحفى الذى زاوله فى الميدان كمراسل حربى . وابنته متزوجة من اللورد جينس (ملك البيرة) البريطانى المشهور . أجاب الأمير ألبرت الأول عن سؤالى فى ابتسامة رقيقة وهو يشرح لى محتويات متحف السيارات بالمصانع قائلا :

— إن مرسيدس فى الواقع اسم امرأة ... وهو ليس اسماً ألمانيا ، بل هو فرنسى !!

— وكيف ولماذا أطلق على هذه السيارة وذاعت شهرته إلى هذا الحد ؟

واتسعت الابتسامة على شفتى البارون الطويل المهيب الطلعة ، الرشيق القوام ، الذى يخطو نحو الستين من عمره فى صحة ونشاط يحسدها عليه ابن الثلاثين :

— كانت وراء هـذه التسمية قصة . فعند ما عثرت شركة (ديملر - بنز) على وكيل لها فى باريس ، لاحظت أن الوكيل يشعر بشىء من الحرج ويتململ وهو يردد اسم (ديملر - بنز) ... فلما سئل عن سر تململه أجاب بكل صراحة :

— أيها السادة : إن الاسم عنصر قوى فى رواج أية سلعة من السلع ، ولا سيما عندنا فى فرنسا . ولهذا أرجو أن تبحثوا عن اسم جذاب لسيارتكم من أجل مصلحتى ومصلحتكم !

— ولماذا لا تبحث أنت وتخبرنا بالاسم الذى تقترحه ، وتراه كفيلا باجتذاب عملائك المنتظرين ؟

ولم يكذب الرجل خبراً ! بل لم يتردد طويلا قبل أن يقول :

— اسمعوا ! إن زوجتى سيدة جميلة ، وجذابة . . . وتحمل اسما موسيقياً رناناً . . . فماذا لو سمحتم لى بإطلاقه على سيارتكم هنا : أعنى فى فرنسا ؟ !

وما هو اسم زوجتك ؟

— مرسيدس ! !

وكانت التسمية التى كادت تبتلع اسم (ديملر) من ذلك اليوم حتى الآن . ولا سيما بعد أن اشترت إحدى الشركات البريطانية حق صناعة سيارات ديملر ،

وأصبحت سيارة ديملر ذات الاسم الألمانى إنجليزية ، كما أصبحت سيارة مرسيدس ذات الاسم الفرنسى ألمانية ! !

وكان من طرائف المفاجآت الأخرى أثناء زيارتى لهذه المصانع ، أن الشركة التى تنتج هذه الآلاف من سيارات الركوب والأوتوبيس ، لا تملك سيارة أوتوبيس واحدة تستطيع أن تنقل بها زوارها ، أو حتى موظفيها وعمالها (ومعظمهم يملك سيارته الخاصة !) من مقر إدارتها إلى مصانعها وبالعكس ! !

— لماذا ؟

— لأن لأصحاب سيارات النقل الخاص والعام حقوقاً معترفاً بها فى ألا يتعرضوا للمنافسة أو المزاحمة أو نقص (الزبائن) بسبب استخدام الأوتوبيسات الخاصة فى نقل موظفى الشركات أو عملائها أو عمالها ، ولو من مصنع إلى مصنع فى مكانين بعيدين أو قريبين ، ما دامت السيارة ستخرج من سور المصنع إلى أى مكان آخر ! !

وعند ما كنت أتنقل بين أرجاء مصنع (ديملر - بنز) هـذا فى (أونترتوركهايم) ، على مقربة من شتوتجارت ، ويبلغ عدد موظفيه وعماله نحو ١٨ ألف نسمة ، كان من العسير بالفعل أن أصدق ما قيل لى من أن ٨٠٪ من منشآته كانت حطاماً وركاماً سنة ١٩٤٥ . . . وبعد ثمانية عشر شهراً من العمل بلا راحة ، ولا أجر ، سوى طبق من الطعام لا يسمن ولا يغنى من جوع ، كان الحطام قد أزيل ، لتبدأ عملية البناء التى أعادت لشركة (ديملر - بنز) مكانتها الممتازة فى صناعة السيارات . أما أكبر مصانع الشركة فهو مصنع زندفينجن الذى يضم أكثر من عشرين ألف عامل . وأما مصنعها فى مانهايم فيضم أكثر من ١١ ألف عامل . وقد أصبح بعد الحرب العالمية الثانية ، أكبر مصنع لسيارات نقل الركاب فى أوربا .

حقائق
وإحصائيات طريفة

مستوى المعيشة :

أجرى فى المدة الأخيرة استفتاء شعبى للكشف عن حقيقة مستوى المعيشة فى ألمانيا الغربية تبين منه :

١ — أن ٨٠٪ من الشعب يعيشون فى مستوى طيب جداً ويسمح دخلهم بتغطية مصروفاتهم .

٢ — أن ٤٠٪ من الشعب يزيد دخلهم على مصروفاتهم .

٣ — أن ١٢٪ فقط يقل دخلهم عن حاجاتهم الفعلية .

٤ — أن متوسط دخل رب العائلة الذى يكفى لسد نفقاتها الشهرية ٥٧٠ ماركا (بين ٧٥ و ٧٠ جنيهاً مصرياً) .

طلبة الجامعات :

يؤخذ من آخر الإحصائيات التى وقفت عليها حول الدراسات الجامعية أثناء زيارتى لجامعتى توبنجن وماربورج ما يلى :

١ — بلغ عدد الطلبة الذين قيدوا فى جامعات ألمانيا الاتحادية (وبرلين الغربية) فى مطلع العام الدراسى لسنتى ١٩٦٢ — ١٩٦٣ ٢٢٨٫٦٨٥ طالباً ألمانياً و ٢٢٫١٦٨ طالباً أجنبياً .

٢ — بلغت نسبة الإناث نحو ٥٣٪ فى كليات الآداب ونحو ١٧٪ فى كليات الطب .

٣ — بلغ عدد الملتحقين بكليات المعلمين نحو ١١٫٠٠٠ ، بينهم ٦٫٤٠٠ من الجنس الناعم .

القاموس الألمانى :

تم أخيراً إنجاز « قاموس اللغة الألمانية » الذى بدأه الأخوان يعقوب وغليوم جريم منذ قرابة ١٢٥ سنة ! وهو يقع فى ٣٢ مجلداً تضم ٣٤ ألف صفحة وستطبع نسخة موجزة منه ، محدودة العدد فى هذا العام بمناسبة مرور ١٠٠ سنة على وفاة يعقوب جريم الذى اشتهر أيضاً بقصص الأطفال . ويسجل هذا القاموس الفريد فى نوعه كل كلمة ، وكل تغيير طرأ عليها منذ وضع مارتن لوتر ، المصلح الدينى الذى أسس المذهب البروتستانتى ، هذه اللغة فى قالب موحد إلى عهد جيته ثم إلى عصرنا الحاضر ، مع أمثلة مقتبسة من المؤلفات الأدبية خلال هذه الفترة كلها . ومما يذكر هنا على سبيل المثال أن كلمة GUT أى حسن ، بكل معانيها شغلت ١٣٩ عموداً فى هذا القاموس ، يعادلها للكلمة المقابلة لها باللغة الإنجليزية ١٩ عاموداً فقط فى قاموس أكسفورد .

والظاهرة التى تستحق التسجيل بهذه المناسبة أن إنجاز القاموس الألمانى المذكور تم بالتعاون بين فقهاء اللغة فى شطرى ألمانيا : الغربى والشرقى !

سيدة بيت متواضعة وراء المستشار القادم :

قلما يسمع الناس باسمها فى ألمانيا وخارجها على السواء ، ولكنها تعد مع ذلك عنصراً من أقوى العناصر التى أدت إلى سطوع نجم زوجها البروفيسور

لودفيج إيرهارت الذى يوشك أن يصبح مستشاراً (أى رئيساً للوزراء) فى ألمانيا الغربية .

إنها فراو (أى السيدة) لويزا إيرهارت ، التى اقترنت بزوجها وجارها منذ أربعين سنة ، بعد طفولة سعيدة ، لعبا خلالها معاً فى براءة الأطفال بمدينة فورت بولاية بافاريا ، حتى إذا بلغا مرحلة الدراسة العليا وجدا نفسيهما جنباً إلى جنب بمعهد التجارة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ومن هذا المعهد خرجا يحملان ليسانس التجارة . ويحملان شيئاً غالياً آخر ، هو خاتم الخطوبة فالزواج الذى تم فى سنة ١٩٢٣ ، ما زال قائماً سعيداً حتى الآن .

إن لويزا إيرهارت تعيش « فى الظل » ، بعيدة عن الأضواء والحفلات والاستقبالات ، وتنزل إلى السوق بنفسها كأية زوجة ألمانية عادية ولعلى مررت بها أكثر من مرة دون أن أدرى ، ودون أن يدرى معظم الباعة والمشترين فى سوق بون ، حيث تقوم إلى جانب شراء حاجياتها بمهمة أخرى ، هى مقارنة الأسعار ، والأصناف ، ومطابقتها على معلومات زوجها الوزير « صانع المعجزة » ... وهى تعتبر أكبر ناقد ناصح أمين لخطبه وأحاديثه عندما يعود إلى بيته ، حتى ليقال إنه يشعر بضيق ، وعدم ارتياح ، إذا هى لزمت الصمت ، ولم تطالعه بآرائها الصريحة فيما يكتب أو يقول .

وهما لا يزالان يقيمان حتى الآن فى مسكن صغير — بالإيجار — لأن لويزا الزوجة المدبرة المتواضعة ، لم توافق على فكرة كان قد أبداها فى بناء فيلا سكنية لهما . وصممت على أن يظل بيتهما المؤجر البسيط الخالى من الترف باقياً على حاله ، يضمهما كل مساء بعد انتهاء ساعات العمل ، فيستمعان إلى الموسيقى الكلاسيكية أو يطالعان القصص البوليسية ، أو يزاولان هواية أخرى مشتركة بينهما ، وهى طهو الطعام !

يانتشك بدلا من برانت :

عندما وصلت إلى برلين وجدت فى برنامج زيارتى مقابلة مع المستشار الصحفى للهرفيلى برانت ، محافظ برلين وحاكمها ، وقيل لى إن الهر برانت مريض بالأنفلونزا فى بون ، حيث كان قد ذهب على عجل لأعمال تتعلق بالانتخابات البرلمانية فى الولايات . ولهذا رئى ترتيب هذه المقابلة لعلى أحب الوقوف على بعض المعلومات أو السؤال عن بعض الموضوعات الخاصة ببرلين أو بالهر برانت أو بالمسألة الألمانية بوجه عام . فقلت إننى آسف لمرض الهر برانت ، ولكنى لا أرى داعياً لمقابلة أى مستشار أو نائب عنه ، لأننى أحب أن أرى كل شىء بنفسى ، وأحكم عليه بانطباعاتى ومعلوماتى التى أعتقد أنها كافية فى الوقت الحاضر وأضفت إلى ذلك ما يلى :

— لماذا يتجه الناس دائماً إلى الناس الكبار ، والمشروعات الصناعية الكبيرة والمؤسسات والمنشآت الضخمة ؟ ألا يوجد هناك أناس آخرون ، ليسوا فى مثل شهرة الهر برانت ، ولكنهم يبذلون فى مجالاتهم جهوداً لا تقل عن جهوده ؟ أليست هناك منشآت وصناعات ليست فى ضخامة كروب ، وشيرنج ، وديملر بنز وديماج ، ولكنها تساهم بنصيب حيوى فى اقتصاديات البلاد ورفاهيتها ؟ إننى أريد أن أرى أناساً بسطاء ، وصناعات يدوية بسيطة ، ومجموعات بشرية متواضعة منكبة على أعمالها فى سكون . وفى مثابرة ، بعيداً عن الأضواء !

وكانت هذه مقدمة قصة ممتعة سمعتها ، ورأيت ختامها السعيد عندما زرت مصانع يانتشك للحديد المشغول على بعد بضعة كيلو مترات خارج مدينة برلين .

المكان نفسه جزء من القصة : إنه معسكر قديم دمرته الغارات الجوية الهائلة على العاصمة الألمانية . وقد حوله يانتشك إلى مصنع ومسكن فى غاية النظافة والأناقة .

وصاحب المصنع يؤلف مع زوجته أول عناصر النجاح فى هذه المؤسسة الخاصة التى بدأت فى أعقاب هروبهما من المنطقة الشرقية الشيوعية ، والتجاء يانتشك إلى الاقتراض من أحد البنوك لإنشاء مصنع يدوى متواضع للحديد المشغول فى صورة أوان للزهور والشموع ، وبقايا السجائر ، وعلب الكبريت والمصابيح الكهربائية ، ونحوها مما لا يستغنى عنه بيت غربى أنيق .

وفى صبر ، وأناة ، وفهم ، استطاع يانتشك الهارب بجلده من النظام الشيوعى أن يبنى بيديه ، متعاوناً مع زوجته ومجموعة من مهرة الصناع اليدويين رجالا ونساء ، هذه الخلية التى لا تهدأ من العمل ، وأصبح — كما روى لى قصته المثيرة — يصدر إلى مختلف أنحاء العالم مصنوعاته اليدوية الجميلة بما لا يقل عن مائة ألف جنيه استرلينى فى العام . واستطاع أن يسدد كل مارك استدانه من البنك بفائدة غير قليلة .

وعندما عرض أحد كبار المولين على يانتشك أن يقلب مصنعه اليدوى إلى مؤسسة صناعية تستعين بأحدث الآلات ، وتنتج أضعاف ما تنتج الآن ، وتكسب بالتالى أضعاف ما يكسب هو وزوجته وعماله المهرة ، رفض بلا تردد ولا ندم .

سألته : لماذا ؟

فقال : لأن للمهارة اليدوية عندى مكانة لا أحب أن أفسدها بالآلات الحديثة ؟! إن هذا العمل ليس مجرد مصدر للكسب ، وهو كبير بحمد الله ، ولكنه أيضاً لذة ومتعة وهواية !

وحمدت الله على أن الهر برانت كان غائباً عن برلين !!

أفظع من هيروشيما :

يعتقد بعض الناس ، بل معظم الناس ، أن أكبر عدد من ضحايا الغارات الجوية خلال الحرب العالمية الثانية هو عدد الضحايا الذين قتلتهم أو شوهتهم القنبلة الذرية التى ألقيت على مدينة هيروشيما اليابانية . ولكن الواقع أن مدينة درسدن الألمانية هى التى تحمل الرقم القياسى فى عدد الضحايا ومدى الدمار الذى لا يكاد يتصوره العقل . وهو يعادل أضعاف ما حدث فى هيروشيما . وقد ظهر أخيراً كتاب لأحد المؤلفين الإنجليز روى فيه مأساة الإغارة على درسدن ، وكيف ضاع فيها ١٣٥ ألف شخص ، فضلا عن الدمار الذى أصاب آثاراً ومعالم تاريخية لا تعوض ، دون أن تقتضى الضرورات الحربية هذه الغارة الوحشية على الإطلاق وقد ذكر المؤلف أن تشرتشل نفسه روع حين علم بالأرقام والحقائق . وقال كثيرون من الإنجليز والأمريكيين إن هذه « جريمة لا تليق بالعصر الحاضر » وقد حاول الإنجليز ، كما يقول الكاتب الإنجليزى ، إلصاق مسئولية هذه « الجريمة » بالأمريكيين ، ولكن الوقائع التى رواها المؤلف أثبتت أن سلاح الطيران الأمريكى لم يشترك فى الغارة على درسدن إلا بعد أن كان سلاح الطيران البريطانى قد قطع أشواطاً طويلة فى هذه « المهمة » !!

ومما يرويه التاريخ بحروف من نور أن شاعر ألمانيا العظيم جرهارت هاوبتمان رفض أن يغادر سيلسيا ، ليبتعد عن درسدن عندما بدأ بضربها ، وبعد أن شاهد الدمار الذى حدث أدلى بحديثه القصير الذى استنكر فيه الاعتداء على درسدن وقد اقتبسنا منه الدعاء الذى قدمنا به هذا الكتاب .

صورة الغلاف

إن تاريخ ألمانيا بعد الحرب يرتبط بعلامتين بارزتين هما : التقسيم وظهور أديناور كأول مستشار لألمانيا بعد تخلى السلطات العسكرية عن الحكم المباشر سنة ١٩٤٩ .

وفى الصورة المنشورة على الغلاف إحدى اللحظات التى اجتمع فيها الإثنان : أديناور ، وبوابة براندنبرج التاريخية التى أصبحت علامة التقسيم الذى لا يزال يشطر ألمانيا شطرين : أحدهما شيوعى أو شرقى والآخر اتحادى غربى .

ويرى أحد ضباط ألمانيا الشرقية يضع يديه فى خاصريه عن بعد ، وكأنه يتحدى الغرب فى شخص المستشار أديناور الذى يتحدث هنا مع بعض مرافقيه .



فهرس

للمؤلف

١ — نوابغ الشباب (دار الهلال) سنة ١٩٣٨

٢ — مارد من الشرق (كتب للجميع) سنة ١٩٥٠

٣ — ساعات مع الأحرار (دار البلاغ) سنة ١٩٦٣

٤ — الدنيا وطنه والحرية رايته حياة توم بين ومختارات من مؤلفاته (مؤسسة فرنكلين — سنة ١٩٥٧)

٥ — منتصف مارس مأساة يوليوس قيصر فى رسائل (مؤسسة فرنكلين — سنة ١٩٦٢)

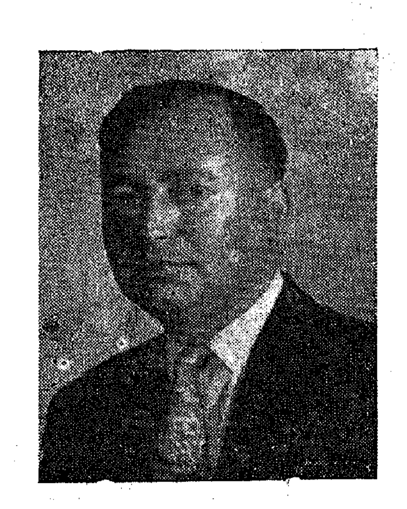
٦ — سيمون بوليفار (مؤسسة فرنكلين — سنة ١٩٦٢)

٧ — عمالقة الأدب ٣ أجزاء (مشروع الألف كتاب — بالاشتراك فى الترجمة والمراجعة مع الأستاذ دريني خشبة)

٨ — دراسات فى الأدب الأمريكى بالاشتراك مع آخرين وتحت إشراف الدكتور طه حسين (مؤسسة فرنكلين)

٩ — تاريخ الصحافة ومشاكلها فى الشرق العربى بحث قدم لليونسكو بالإنجليزية سنة ١٩٥٦





المؤلف

— ولد فى ١٢ يناير سنة ١٩١٤ بمركز ميت غمر . محافظة الدقهلية .

— تلقى تعليمه الابتدائى فى المنصورة والثانوى بالزقازيق وحصل على شهادة الليسانس فى آداب اللغة الإنجليزية من الجامعة المصرية سنة ١٩٣٣ ، وشهادة المعهد العالى للصحافة بجامعة كولومبيا سنة ١٩٦٠ .

— اشتغل بالصحافة منذ كان طالباً بالجامعة وعين سنة ١٩٣٧ بالمكتب الفنى لوزير التجارة ثم فصل من الحكومة لكتابة سلسلة مقالات سياسية عنيفة سنة ١٩٣٨ ضد القصر وأحزاب الأقلية بعنوان « آن أن نصرح » ، كان يوقعها بإمضاء مستعار هو « صريح » .

— رأس تحرير عدة صحف . وانتخب نقيباً للصحفيين سنة ١٩٥٥ وما زال وكيلا لنقابة الصحفيين حتى الآن . كما يشغل منصب نائب رئيس تحرير مجلة « المصور » .

— وقع اختيار منظمة اليونسكو التابعة للأمم المتحدة ليكون خبيراً فى الإعلام لدى الدول النامية . وهو أول صحفى عربى يختار لهذه المهمة .

— زار الهند مرتين وأمريكا ثلاث مرات ، كما زار الاتحاد السوفيتى على رأس وفد من رجال الإعلام المصريين ، وكذلك زار الصين وفرنسا وانجلترا والحبشة والصومال وكثيراً من الدول العربية .

— مثل مصر والشرق الأوسط فى أول مؤتمر دولى للتأهيل الصحفى عقدته هيئة اليونسكو فى باريس سنة ١٩٥٦ . وانتخب مقرراً للجنة الأولى للمؤتمر ، وقدم بحثاً مستفيضاً بالإنجليزية عن تاريخ الصحافة العربية ومشاكلها ، ترجمته هيئة اليونسكو إلى الفرنسية أيضاً ووزعت نسخاً منه باللغتين ضمن مطبوعاتها .

— ألف وترجم عدة كتب ، يرى القراء بياناً بها داخل هذا الكتاب .

الثمن ٢٥ قرشا مصريا

المطبعة العالمية ١٦ ، ١٧ شارع ضريح سعد بالقاهرة